ذات مساء

قصص قصيرة

عبد الجليل الشرنوبي

الشرنوبى ، عبد الجليل
ذات مساء : قصص قصيرة / عبد الجليل الشرنوبي.-
ط١٠ – الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي ، ٢٠١٢
١٤٤ صفحة – ٢١سم
تدمك، ٩ ٢٠١ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القصص العربية القصيرة
٢- القصص العربية
أ- العنوان

٨١٣ ، ٠١

ذات مساء

قصص قصيرة

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

حسام حسين

رقم الإيداع

٢٠١٢/٢٢٣٤

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٢٠١-٩

الطبعة الأولى

الكتاب : ذات مساء
المؤلف : عبد الجليل الشرنوبي
الغلاف : أحمد فكرى
الناشر : أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م
٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة
atlas@innovations-co.com
www.atlas-publishing.com
تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥
فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

إهداء

إلى الحرية...

حواء التي سكنتنا

فصرنا أكثر قدرة على أن نكون

استهلال

أقر وأعترف أنني لم أعرف بعد ملامح كاتب هذه السطور، ويمكن اعتبارها الخطوة الأولى في الوصول إليه مع كل من يقرأ...

وأستطيع الجزم بأن أرواحًا عدة صاحبت قلمي حين كان يحاول جاهدًا أن يُخرج من رحمه مواليد كاملة بغير تشوهات لحقت أيامنا، غير أن الذي يمكن أن يغفر لنا ضعفنا عن المواجهة جسارة الذين دفعونا لأن نستشعر للمرة الأولى ربما عبر تاريخنا المصري أننا ننتمي لوطن قادر على أن يعيد إنتاج إنسانيته.

كما لا يمكن نفي تأثير ارتباطي بجماعة الإخوان المسلمين منذ بداية وعيي، عن تفتح عيناي على سماء الإبداع الأدبي والفني برفقة أدباء دمنهور مدينتي الذين عايشتهم عمرًا موازيًا جامعًا فيه بين طرفي الفكرة ... من إسلامية إلى يسارية وربما علمانية وهو ما جعلني دوما موضع النصح والتوجيه والتحذير من كافة الأطراف بين مطالب بخلع العمامة وداعيًا لتثبيتها.

... لكن يبقى في النهاية أننا سنلج عوالم أزعم أن مشاهدها المنحوتة في القص طازجة وقابلة لإعادة إعمال النظر في مُركباتها سعيًا للوصول لصورة إلى حد ما تربط الإنسان بالوطن من ناحية وبذاته بطريقة أخرى ليصبح أكثر اتساقًا مع إنسانيته وهو ما يدفعه للتعبير بحرية عن كيانه الأوسع - الوطن- الذي عاش دهرًا في مساء بغير قمر حتى صدمه ضوء بدر التمام... "ذات مساء".

الانتصار للبوسنة

(١)

- على الزعيم الصغير أن يكون على مستوى المسؤولية، هو صحيح مجرد رئيس اتحاد طلبة للثانوي، لكن "الأمة" تنتظر منه الكثير، إنه يجب أن يحمل الروح التي تحدث عنها الإمام الشهيد حسن البنا حين قال في رسائله: "أنتم روح جديد يسري في بدن الأمة فيحييها"

تحولت الكلمات التي قالها له الأخ المسئول إلى أصابع امتدت عبر طبقات ملابسه وجلده لتدغدغ حلمًا نائمًا فيستيقظ ويدعوه للاعتدال في طابور الجندية ضمن جيش يتأهب ليستعيد مجد الإسلام التليد!

فيتقلب في فراشه محتضنًا الوسادة بحنان ويقبلها.

(٢)

- هل هذا هو الخطاب الأول؟

قالها الأخ المسئول عن (الأسرة)❖ التي هو عضو فيها

- نعم.. ولم أشأ أن لا تعلم...

كانت إجابته تجر كلماتها خلفها جثثًا قتلها الخجل..

ويسعى لدفنها خلف اعتراف لـ (نقيب)❖ أسرته الذي حاول جهده أن يكون المثوى الأخير.

(٣)

مع ارتفاع درجة حرارة روحه أثناء حالة البوح... بدأ محتوى عينيه يغلي ويزفر ويرمي بشرره على بياضهما... ويفيض نقاطًا سيالة على مجارٍ غير محددة عبر تقسم خارطة وجهه، وتتضامن مع عينيه أنفه في السيلان

- والله ما عملت حاجة حرام... إنه مجرد خطاب... حتى المصافحة لم تكن
- يا حبيبي لا يصح أبدًا.

قالها الأخ المسئول برقة ونصح

- ليه؟ الحكاية أربع سنوات وأتقدم لها خاطبًا.

التساؤل رسم لوحة أمل وردي وطيورًا وحفل زفاف... وصوت فرقة الزفاف الإسلامية يشدو في الجموع (واسمع يا مسلم هذه الوصية... أما تتجوز خد الشرعية... ح تعيش معاها عيشة هنية... وتملا لك بيتك ود وحنية)

- وماذا لو لم يحدث بعد أربع سنوات؟ إذا لم يقبل أهلها؟ إذا لم يقبل أهلك؟ إذا أنت مت؟ ما الذي ستقوله لربك.. لغايتك؟

حمل الأخ المسئول كل ألوان الرسم وألقى بها على صفحة حلمه.. ثم مد يده ليخلعها عن قلبه.

(٤)

كان مسئوله يسير في كل الدروب التي حاول أن يهرب إليها

كلما شق طريقًا في جبال الممكن وجده في آخره واقفًا فاتحًا له ذراعاه، ومبتسمًا وحانيًا... لكن من قال أنه يريد حنانه؟!

- اعتبرها أختك؟

قالها محاولا إحراجه

- من قال أني يمكن أن أجرح نقاءها

رد مصرًا على سمو حسه

- إذن ماذا ستقول لربك عندما يسألك

ابتسم الـ (نقيب) ابتسامة الظافر

وكانت الإجابة تخرج من غار فمه الذي تتقاطر على بابه دموع العاجز حال الاعتراف

- سأقول له : اللهم إن هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك

تحرك الأخ المسئول في الغرفة صامتًا ...

ينظر للكتب المتناثرة هنا وهناك ..

يبحث عن محطة وصول أو منصة قفز ...

التقط (الحب في المنفى) ... اعتبرها سند الاتهام ودليله الذي لا يقبل الشك ..

قال وهو يضعها أمام عينيه المتعلقتين ببهاء طاهر

- لو كنت تحسن اختيار ما تقرأ ما كنا أضعنا وقتنا في هذا الكلام الفارغ!!!

(٥)

ولأول مرة يقوم ... ولم يكن على يقين تام بما يمتلك من حيثيات الدفاع لكنه كان مؤمنًا بنبل التهمة خاصة حينما صارت مزيجًا من (بهاء) البنت وحبه الـ (طاهر)

توقفت الدموع ... وتدثر بـ (روب) المحاماة وقام

- كان ممكن ألا أخبرك ... كنت أستطيع أن أواري ... أنا لا يوجد عندي ما أخجل منه ... قلت لك حتى أصحح المسار وليس لأغلق الطريق .. قلت لك لتدلني على السير لا لتشل إرادتي في فعل لم أختره

.....

- أنت تعلم جيدًا أن هناك أخطاءً كثيرة لا تقال ... ثم إنني لا أريد غفرانك بالاعتراف .. لأني لا أرى ما يستحق الغفران. أنت تسحق روحي دون أن تدري ... تغتال حلمًا لبادرة خرجت لتوها من أرض بكر

.....

فاجأ الأخ المسئول منطق الدفاع ... وتحوله إلى الهجوم ... وشعر أن الفتى بدأ يتفلت من بين أصابع سيطرته ...

ماذا لو لم يجارِه ... يوافقْه ... يحاول أن يصحح مسار العلاقة ، أو أن يكون رقيبًا عليها ...

رفع عيناه حاملاً معها نظرة استسلام مرغمة وقلقه ...

- هات ورقتك وقلمك ولنكتب لها معًا ... ابدأ ...

راجع موقفه .. حساباته ... وحصيلة ما يعلم عن خطابات الغرام

- هل ستكتب قبل اسمها حبيبتي أم صديقتي ولا أختي؟!

جاءته الإجابة واثقة وقاطعة لكل علامات الاستفهام

- كفاية اسمها ...

(٦)

لم يتجاوز الخطاب أولى خطواته الاستهلالية

قام الأخ المسئول... محاربًا جيوشًا من واقع رتيب...

(الكثرة تغلب الشجاعة). إنها (لجنة الثانوي)❖ التي هو عضو فيها وتشرف على طلاب الثانوي في الحي وبها ستة من الأعضاء، من منهم سيقبل تورطه في هذا الخطاب؟

كان يرى تقاسيم وجوههم منبعثة من خلف صورة حسن البنا التي علقها العاشق الولهان على حائط غرفته... إنها الوجوه التي لا تعترف إلا بجدول المتابعة...

(ليتهم كانوا معه الآن... ليته وارى وما تحدث... ليته اعتذر عن مسؤولية هذه الأسرة... ليته ما بكى وهو يعترف بطهر حبه)...

بندول خطوات الأخ المسئول يتحرك في المسافة الفاصلة بين جداري الغرفة...

وعلى أحد أغلفة دفاتر الورق القديمة لمح ملصقًا يعرفه...

(رجل عسكري منتصب القامة يجري بين أشلاء وقعر حذائه مصوب في وجه من يرى والخط يرسم بمداد الدماء - البوسنة تستغيث-)

التفت من فوره صوب الفتى وأفلتت من شفتيه ابتسامة جانبية سريعًا ما سيطر عليها. ثم جلس إلى جوار فتاه واضعًا كفًا على كتفه والأخرى على فخذه...

- طبعًا... طبعًا نترك كل قضايا الأمة لأنك تحب، بدلاً من الانشغال بدعم إخواننا هنا وهناك نكتب خطابات الغرام....

- .....

والتقط الدفتر القديم ورفعه أمام عيني الفتى الذاهلتين،

وارتدى الأخ المسئول عباءة يوسف وهبي ليستحيل فراغ الغرفة مسرحًا جمهوره الفتى الصامت والدامع وبكريّ العشق:

- نسينا ما يحدث لإخواننا في البوسنة... الناس هناك تموت عشقًا... لكنه ليس كعشقك وإنما عشق للدين... وحبًّا في الشهادة
- .....
- تقدر تقول لي... كيف ننسى دم من أصيب في مؤتمر نصرة البوسنة؟.. المشكلة أنك تعرفهم بإصاباتهم❖ أم أُذكرك؟.... أُذكرك... لأن الحب أنساك... ساق الأخ أيمن... وقدم الأخ وليد و...

واختنقت الورقة في قبضة الفتى

وانكسر القلم...

واندفع الفتى بدموعه نحو صدر مسئوله...

- خلاص... كفاية... أرجوك

كان الأخ المسئول ينعم براحة ضمير دفعته لليقين بصدق الحكمة القائلة (آخر الدواء الكي) فكواه... ثم ترك دموعه تطفئ لهيب الكي.

(٧)

ليلة طويلة قضاها الفتى مرتاح الضمير محتضنا الوسادة ومُقَبِّلاً غده القادم. وأنهاها بصلاة الفجر وقراءة (المأثورات)❖

لقد حسم أمره....

لن يتخلى عن السير في درب تحقيق المجد المنشود... جنديًّا في صف الدعوة...

وصباحًا سيكون أول ما يفعل هو أن يرسل خطابه الفرعوني الغلاف إلى محبوبته يوصيها فيه بأن تحافظ على صلاتها ولا تنسه من صالح دعواتها لأنه يحبها ... ويريدها سندًا له على طريق الدعوة طول حياتهما التي ستشهد بداية قصتهما الحقيقية بالزواج.

دمنهور ١٩٩٣ - القاهرة يونيو ٢٠١١

هامش

- الأسرة : هي أصغر وحدات التنظيم الإخواني ولها مهام ثلاث (التعارف - التكافل - التفاهم).
- النقيب : صفة المسئول عن الأسرة وهو حلقة الوصل بين الأفراد وقيادات التنظيم.
- لجنة الثانوي : هي اللجنة المسئولة عن طلاب الثانوي مركزيًّا وتصل للأحياء.
- مصابي مؤتمر نصرة البوسنة : حدث بالفعل في مدينتي دمنهور أن هاجمت الشرطة مؤتمرًا لمناصرة البوسنة أثناء حربها وأصيب عدد من الإخوان فيه إصابات أعاقتهم.
- المأثورات : مجموعة من الأدعية جمعها مؤسس الإخوان الشهيد حسن البنا من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ويقرأها الإخوان بعد الفجر وقبل المغرب

القطار في غابة الأطياف

أتجول على رصيف المحطة ذهابًا وإيابًا ...

كان تلكُئي من قبل يطول على أمل موعد أراها ثم أرحل... أحلم بموعد آخر... وآه من الانتظار الذي تمتد آهاته حتى حين يأتي اللقاء الجديد ... ويأتي القطار.

تحملني خطواتي إليه، يتشكل داخلي عالم يموج بذكريات اللقاء والفراق، وأدخل عربة القطار مع بضعة ركاب كانوا متناثرين معي على الرصيف..

ينقطع نور القطار بعد انطلاقه بدقائق فأغوص في ظلامه إلى ظلام وأطياف... أجلس داخله أنصت لهمس الركاب الذي تأكله العتمة.

"الوحشة تحتويني وأشيائي تسقط داخلي محدثة دويًا لا أسمعه"

.... تنبعث صورتها مضيئة.. نور ونار وألق من سنا يضيء داخلي في عتمة العالم... شعرها الأسود المرجَّل غابات أمازونية وحشية... وبشرتها الملونة بنيل بلدي تتسع عن ابتسامة ترسم غمازتين على وجهها... تسحراني وتنتشلني من وسط أشجار القناطر الخيرية التي تنظر إلينا موارية... يقترب منا صبي يبيع الفل... أشتري عقدًا وأطوق نحرها به... تقول

- أشك في أن هذا فل

فأرد بغير إرادة للمخالفة

- أنت تفهمي أكثر مني في الورد ... غشنا الولد.

وتضحك.

ينير وجهي ضوء كشاف الكمساري فيخرجني من عالمي.....

- تذاكر يا أستاذ؟

أحملق في وجهه قسماته هي نفس قسمات النادل في ذلك المطعم الذي جاءني عند جلوسنا يومها ....

- طلباتكم؟

قالها مبتسمًا ... ثم سرعان ما تبدد الابتسام عندما لم نشعر بوجوده ... كنت أتساءل (هل يعتبرنا فسقه؟ أم تراه يرانا متحررين؟ أم أنه يحسدنا؟) غير أني على كلٍّ اعتبرته خصمًا .

- يا أستاذ تذكرتك ... ساعة لما ترد .

تكتكات القطار على القضبان تملأ الليل بالضجيج والأشجار والغيطان أتخيلها في عتمة الليل وهي تغتسل بالندى والطل الصابح

جلسنا تحت شجرة ... رأيتها تنظر إلى الأشجار من حولنا بفزع تواريه بضحكة على لا شيء ثم اعترفت ...

- كنت وأنا صغيرة ألعب الاستغماية عند جدتي في البلد وتهت بين الأشجار .
- .....؟؟
- بس معك لا أخاف شيئًا
- وأنا أخاف من الفراق

وعندما وقف القطار هب شاب وفتاة واقفين للنزول .. لم أكن أرهما في العتمة ... قال لها

- غدًا؟

أشارت رافضة ... بدأ القطار يتحرك ... تسأل بصوت هامس عالي

- ليييييه؟
- لأن غدًا الجمعة

... كم كان لقاها يخفف عني وطأة الوحدة ... ويمر سريعًا ... قالت :

- يجب أن أعود الآن
- ليه؟ ...
- لأني تأخرت .. وأنت تعرف ... ذاهبين لزيارة عمي .

ويقف باص (٨١٠) تركب .. تودعني نظراتها ويندفع الباص وأندفع خلفه أقفز داخله أقطع لها تذكرة واقفز .... تصرخ : مجنون

.... ويسير القطار

يقبلني المجنون في كتفي أخرج له ما تيسر يقبلني ثانية ويغلق يدي على ما أعرضه عليه ويقبلني ثانية ويبتسم راحلاً ...

أستدير إلى النافذة ... هاهي شبرا الخيمة بضجيجها ...

- أكره الضجيج

هكذا قالت .. ورددت :

- وأنا معك لا أسمع سوى صوتك
- أنا لا أستحق كل هذا
- بل أكثر
- يكفيني أننا ..

قاطعتها

- ويكفيني منك نظرة..

وترتطم يدي بمسمار في حائط فتجرح، تخرج منديلها لأمسح يدي... كان آخر منديل معها.. أدسه في جيبي فتقول

- المناديل فراق

أضحك.. أخرج قلمي الرصاص ذا السن الرفيع.. أدسه في الجرح وأكتب لها على ورقة "أحبك"... تدمع عيناها.

يدخل القطار إلى جوف محطة القاهرة المعدني الذي يبتلع أسراب البشر ويطرد أخرى.

في الميكروباص الذي يحملني مع بشر وحقائب ومعدات نجارة تجلس مثلي تماما على المقعد المجاور...

أتحسس الخطاب في جيبي... فتتشكل كلماته على كفي الذي كان مجروحا...

(أكتب إليك وأنا في المطار... طال انتظاري... والآن أغادر مع زوجي الذي فرضه أهلي علي... مدرس لغة إنجليزية يعمل بالإمارات العربية الشقيقة... أعتذر لك... وأبكي كثيرًا ذكريات لقاءات جميلة).

أهرش آثار الجرح الذي لم يندمل وأطوي الخطاب...

القاهرة أكتوبر ١٩٩٦م

اعتقال شمس*

الشمس نصف قرص يتآكل تدريجيًّا في قلب البحر.. أمواجه تخرج من أمامها متدافعة... متقاربة متباعدة قمم تعلو قيعانًا... جيوشها تسير نحوي...

"لن يستطيع أحد أن يصد زحفها ليُنقذ الشمس".

تنكسر جيوش الموج على الشاطئ تاركة وجهي وقد علته قطرات ماء ملحية بينما ترتفع رطوبة سروالي تدريجيًّا.

وترحل الموجات لتتلقى أمرًا جديدًا، وتحاول حبات رمال الشاطئ التي تحملني أن تدركها، فتضل طريقها إلى قاع بعيد يُعيد تصديرها... وربما لا.

وأحاول أيضا اللحاق بالموجات بغير إرادة مني.

رأسي تدور مطلة على المدينة ونور الشمس يودعها... تخبوا المعالم تدريجيًّا مع ألوان المباني الآخذة في الشحوب والتوحد والتلاشي... تستحيل شواهد... الكل ساكن والنور يتحرك

- إلى أين تذهب الشمس؟
- تذهب لكنها ستعود
- أشعر أنها لن تعود هذه المرة
- كيف لن تعود؟!
- لأنها ذهبت رغمًا عنها.
- أنت غريب جدًّا اليوم، وأنا شخصيًّا أفضل العودة إلى المنزل عن البقاء مستسلمًا لجنونك.
- ومن سينقذ الشمس؟؟

يضحك أخي وتعلو ضحكاته مُسلِّمًا نفسه لعتمة الطريق تقطع أطراف خياله الآخذ في الاستطالة والذوبان أثناء سيره عائدًا للمنزل.

تدفعني قدماي سيرًا على الشاطئ نحو هدف ما يلوح فجأة... عرافة عجوز محنية تستهدفني على ما يبدو... تبحث في هذا الجو عن لقمة عيش ربما. جلبابها غير مقبض... ليس بالأسود.. إنه قاتم... لكنه غير الألوان جميعًا..

بيدها تحمل طرف ردائها مغلقًا على بقايا رمل مع الأصداف.. تئن أنينًا لا يخرج من فمها.. إنه من الصدر.... أنصت لأكتشف... إنه صوت صادر عن القلب... ثقب نازف سقطت على يداي...

نظرت إلى عيناي... فدمعتْ.

حملت أكبر أصدافها إليّ... قالت بصوت يحاول جاهدًا أن يكتمل:

- يقول أدركها قبل أن يأ.. يأ... يأسروها...

تحرك الموج حاملاً الجسد المسجى والأصداف إلى الداخل... وتحركت رمال الشاطئ لترحل.. لتنتحر شاقّةً طريقًا بأبدانها في بحر زاد هياجه.

أسير على أول الطريق... سريعًا تصبح رمال الطريق قضبانًا متشابكة بينما ترتفع على جانبيه سلاسل وأغلال متحدة... أبدأ الركض لأنقذ ما يمكن إنقاذه. أنفاسي أسمعها تتردد وفي الخلفية أصوات لمزاليج تفتح وأخرى تغلق وصوت العرافة

- أدركها... أدركها...

الشمس من بعيد شعاعها الأخير يستغيث، وأنياب دامية تضمه بينها... أركض بكل قوة... قدمي تسقط بين القضبان.. أرفعها

... تسقط ... ثانية وأرفعها ...

ومرة وأرفعها ومرات.

طريقي ظلمته تشتد وضيقه ... وأراها في البعد خلف أبواب المدى ... أصل إلى الأبواب.

- أفتحها؟
- لا ...
- أنظر من ثقب الباب

أستحسن فكرتي التي طرحتها عليّ ... أنظر وأنظر ...

شمسي تحيطها الأغلال وتُدفع إلى زنزانة

- لن أسمح لهم

تُفتح الأبواب ويعم الظلام ويندفعون ...

أحاطوا بي ... أظلمت الدنيا تمامًا

صرت أمام قائدهم ... يقف معي في الظلام وربما يجلس؟

إنه الآن يتفحصني ...

أنفاسه تلسع وجهي ولا تريح شمي ...

ضحكة طويلة غبية يخرجها ... تعلو وتعلو معها ضحكات البقية.

صرت أبحث عن أي زر أضغط عليه لتهدأ أنفاسي ورجفات أطرافي ... أخيرًا صرخت:

- أين الشمس؟
- أنت من جئت لتنقذ الشمس؟!
- أين الشمس؟

- أي شمس تريد؟
- الشمس.
- أيهم؟
- هل هن كثيرات؟
- نعم
- شمسي... الشمس التي تنير الظلام تبدده... تبصر الناس... تفرق بين الـ ...

قاطعني بحزم

- اسمع.. هذه تحديدًا لا تسأل عنها، فلقد ثبت بالدليل القاطع أن لها نشاطًا مشبوهًا.. فهي تقوم بعمل تنظيم لمناهضة الظلام... ولن نسمح لها بذلك.

ساد الصمت...

رحت استرجع كلماته (شموس... شمس... مشبوه.. تنظيم... ظلام)

نفث دخان سيجارته في وجهي من نقطة قريبة جدًّا... قائلاً:

- لقد أعجبت بشجاعتك لذا سوف تنال شرف العمل معنا... كل المطلوب منك أن تدلنا على أي شمس لها صفات شمسك

وبغير إرادة مني تحركت يداي المرتعشتان... طوقته وصرخ...

ألجمتني المفاجأة.... إن جسده عارٍ تمامًا

عود ثقاب أشعله أحدهم ليستدل على مكاني مع قائدهم... صرخوا... فضح العود عريهم.

فتكوا بصاحب العود ...

وأظلمت الدنيا ...

وهتف القائد

- احبسوه مع شمسه ... دعوهما يموتان معًا

انفتح الباب الأسود بعد سير قليل، واندفعت إلى الداخل... عانقتها ... دموعها بللت سترتي وقلبي.

- شمس لا تبكي أرجوكِ.
- ليس حزنًا ... بل لتأخركَ
- لم أتأخر ... كنت أجهل مكانك.

تحركت يداها وعيناها تبرق... أخرجت من صدرها من عمق بعيد فيه... صندوقًا ... (خذ هذا و ....) اقتحموا الزنزانة واقتادوها مبتسمة ... قالت وصوتها لا يتراجع

- حافظ عليه وسوف تولد كل لحظة شمس جديدة

أمسكته بيدي ... دفنته في روحي.

... اختفى ضوء الشمس ووجدت الماء يغمرني حتى صدري. خرجت أجري إلى الشاطئ.. إلى البلدة ... إلى الشوارع ... المتاجر ... المساجد ... الكنائس ... المنازل ... الملاعب ... وحتى الحانات .... وفي كل منها أُوقِد شمعة والناس من خلفي تصرخ ناهرة

- مجنون
- ستحرقنا بشموعك

- لن نسمح لك...

قذفوني بالحجارة... أكملت السير ... دفعوني... قاومت... دفعوني.... سقطت وسقط من صدري الصندوق.... شاهدوه على امتداد يدي المتجهة نحوي

توقفوا... حملوه إلىّ وساعدوني على الوقوف... وسار كل واحد يوقد شمعة

وعلى المدى في الشارع العتيق... لمحت العرافة تبستم وتوقد شمعة

القاهرة نوفمبر ١٩٩٤م

❖ حين كتبت المسودة الأولى من هذه القصة وضعتها في محفظتي وبعدها بأيام قلائل اعتقلتني مباحث أمن الدولة وبالطبع منح التفتيش الذاتي مسودة القصة للرائد نادر العبد - هكذا كان اسمه الحركي ربما - الذي احتفى بي أيما احتفال باعتبار أني وسعت سلطاته لأعطيه شرف اعتقال الشمس شخصيًا كما قال لي متمًا جملته بتركيبة مبتكرة من السباب الذي يطال كل من ساهم ولو بالفرحة في وصولي للدنيا.

وصل القطار

تسري رعشات القطار من عربته إلى ذلك البدن الذي لم يطل زمن دخوله إلى عربتنا ... الرأس يطوقها الشعر، وتجمعات من أثقال ترتسم مرتفعات ومنخفضات تعلو الجبهة وتقطعها، وأخاديد تشق الوجه، وفم وأنف وعينان كلها غارت.

تزداد رعشات القطار السارية إلى جسد الرجل وتطرق الرعشات باب قدمه البالي لتتراخى ويسقط ...

تسرع يداي إليه أملاً في أن تقلل من صدمة الهبوط ...

تخرج قطرة صغيرة من مقلة ذابت في بحر الحمرة لترمقني ... أعماق سحيقة تهتز من بحر هاج فجأة فيّ ....

- سلامتك يا حاج

وجوه تجري تتجمع من كافة أنحاء العربة

- خير إيه اللي حصل
- يظهر أنه تعبان أو مرهق...
- إنت فطران يابا.

البالطو الذي يحتوي البدن غاية في الاتساع والقِدَم... يداي تغطسان فيه وأنا أحاول أن أنفض عنه ما علق به من أثر السقوط.

- شاي... شاي

أنادي البائع.. أبتاع كوب ماء... يرفض البائع بشرف لا يدعيه ولا ينكره

- إحنا ما بنبعش مية... المية مع الشاي!

أبتاع كوب شاي لا أريده وأدفع بكوب الماء للرجل

- تفضل

نقاط قليلة منه بللت الشفاة التي جففها صيف الأيام...

وتحركت الشفاة برعشة ورعشات إلى أن تبينت منها

- سـ... سـ..سابوني ولاد الكلب

واندفعت النقاط المتجمعة على شاطئ عينيه بغزارة لا تناسب المنبع...

وارتفعت يد أدمنت أصباغ الأحذية لتجمع السبابتين ثم تشير بالإبهام إلى الصدر الذي يعلو وينخفض في تتابع ظاهر.

فهمت أنه يقصد أبناءه وربما بناته أو كلاهما.

أردت أن أحرك لساني بكلمة تلملم شتات النفس المتهرئة الساكنة في البدن العجوز.. لكني لساني كان ملتصقًا بقاع فمي ولعابي غادر حلقي تمامًا. فتحركت هابطًا إلى حيث يتجمع ما بقي من الرجل.

أخذت أمسح على يدي الرجل وأربت.. أملاً في أن أوقف تلك الرعشة إلا أنها انتقلت إلى فأبعدتها بحركة سريعة..

- ع..ع...ع....عاوز أ أ أروح بورسعيد

انطلق صوت من المقعد الذي أمامنا دون أن يلتفت صاحبه

- تنزل بنها وتغير...

استدارت الرأس نحوي (سابوني و....ولاد الكلب)

وبصعوبة سألت

- هم هناك في بورسعيد

تحركت إشارات اليد المرمية بجوار الفخذ التي عقدها تحته بالإجابة مشيرة (لا) ثم انتقل الحوار من اليد إلى اللسان المنهك

- صـ... صـ... صاحبي .... هو اللي فاضلي.

وارتمى الرأس على الصدر ... ثم سمعت (آه .... آآآآه) وبكاء ...

قلت بصوت متحشرج

- وربنا راح فين

برقت عيناه ... واتسع فمه بابتسامه مستريحة ارتفع معها الرأس وانخفض مؤيدًا ... عدة مرات.

حوت عيناي الجسد المكوم أمامي ... تراب القطار المحمول من خارجه يقذفه ويقذفني ... ويتوقف القطار ليندفع الركاب إلى بابه مابين هابط وصاعد ، وتحملني ركبتاي لأحوط جسده الشائخ ... الجالس بكل ما بقي من طاقته ...

أهتف :

- على مهلكم يا ناس ، الراجل عيّان ... الرحمة يا خلق

وأسمع ...

- وهوا إيه اللي مقعده هنا

- واللي زي ده يخرج من بيته ليه أصلاً

وتسقط دمعة على يدي... ثم أخرى... ودمعات كلها عن ذقنه تنفصل... تلهبني. والأقدام تشوطني وتشوطه... وإلى الأحذية ينظر

- عشت طول عمري بين الجزم عشانهم ودلوقتي برضه بين الجزم بس بسببهم... ولاد الكاااالب.

وتحرك القطار... وتحركات فم الرجل المرتعشة لا تنقطع... وأنفاسه صوتها يعلو صوت القطار والبشر.

بدأ يترنح...

توقفت فجأة الأصوات المنبعثة من صدره...

نظرت إلى وجهه... اتسعت عيناي... أمسكت بكتف البالطو فغارت يدي إلى أن وصلت لكتف الرجل... هززتها... سقط الجسد على جانبه

رعشات تملكت داخلي...

شاهدت الركاب يندفعون... يتراقصون... وسمعت

- إنا لله وانا إليه راجعون

قالتها المجموعة وهي تمصمص شفاهها وتضرب كفًّا بكف...

ونزلت في محطة أبدًا لم أكن أقصدها.

القاهرة - يناير ١٩٩٦

قلبي ليس معي

الزمان : فبراير .

المكان : منطقة مزورعة على شاطئ النيل تبتلع منضدةً تطل على النهر المنساب في هدوء .

الجو : أمشيريٌّ عاصف .. الغيوم تلبِّد السماء ، والهلالُ نورُه يصارع السحبَ لينفذ من خلالها إلى الأرض ، على المنضدة كتاب يأبى أن يَسكن أمامَ عصف الريح به ، وتعلو غلافَهُ صورةٌ ترسم ملامحَ تحمل صاحبَها من ثنايا نصف قرن مضى على فراقه إلى واقع يبحث عنه .. ابتسامة صاحب الصورة ثابتة .. لحيته الملتحمة وشاربه يقطُران وضاءةً ، ونظراتُه تسبق واقعَها إلى غدٍ برؤى مِلؤُها اليقينُ في مجيئه ، وسريعًا تتصفَّح الريحُ صفحاتِ الكتاب لتنثر من - حول منضدته- رسائلَه مكوِّنةً مجسَّمًا لصاحبه ("دعوتنا" روحُه .. "إلى الشباب" جسدُه .. "نحو النور" بصرُه .. "التعاليم" فكرُه .. "العقائد" فؤادُه .. "مشكلاتنا" همُّه .. "الحكم والاقتصاد" شُغْلُه .. "تحت راية القرآن" وقفتُه .. و"في طور جديد" ..)❖

أصبح صاحبُ الصورةِ (حسن) الطلعة يقف ، عدَّل من هندامه ، أصلحَ ، وضعَ طربوشه ، ووضع يده اليسرى في جيبه ، وتحرك واليد اليمنى تمسح دمًا متساقطًا من جرح فوق قلبه .

النيل يواجهه ، والقاهرة تحوطه ، نظر إليها والابتسامةُ لا تفارق وجهَه ، تنهيداتُه خرجت من أعماقه تحمل ذكرياتِ سَيْرِه بها ، فكم ضمَّته ورفاقَه ومؤتمراتِه .. القاهرة ..

ترابُ شوارعها وحواريها وأزقَّتها عالقٌ بروحه ، حبُّها يَجري في دمائه ، تذكر قوله عنها : "نعيش في أخصب بقاع الأرض ، وأعذبها ماءً ، وأعدلها هواءً ، وأيسرها رزقًا ، وأكثرها خيرًا ، وأوسطها دارًا ، وأقدمها مدنيةً وحضارةً وعلمًا ومعرفةً ، وأحفلها بآثار العمران الروحي والمادي والعلمي والفني" .

لم يكن يشعر ببائعة الورد العجوز إلا حين ارتفع أنينُها خنجرًا يمزِّق رداءَ الليل الصامت، ثوبُها الأسود ووشاحُها الأبيض يبلعان جسدَها، رمقتْها نظراته في حنوٍّ، وقدماه تهدفانها، سُتْرتُه وضعَها على كتفي العجوز، وارتفع وجهُها إليه فزعًا لم يلبث أن تحوَّل إلى ذهول ثم فرحة غامرة، قالت:

- عدت؟!
- لم أغِب.
- كنت أنتظرك.
- وكنتُ حولكِ ومعكِ.
- تعذبتُ بعدكَ.
- ليس عذابًا.. وإنما سنةُ الله في خلقه.

احتضنَتْه..

كان قلبُها تعلو خفقاتُه، وكان قلبُه ينزف قالت:

- تآمروا عليك؟!
- فأجاب في يقين (كنت أنتظر تآمرهم)
- وذهبت إلى التهلكة بقدميك؟!
- عرفت كيف أُحسن صناعة الموت لأحيا.
- أي حياة؟!
- حياتان: الأولى في حواصل طيورٍ خضرٍ هناك عند العرش، والأخرى مع بنيك.
- لا أراهم

(قالتها في يأس).

- هم حولك، والصورة لن تكون أبدًا قاتمةً؛ لأن النور لا تمنعه حواجز، وحتمًا سيثقب جدارَ الظلام شعاعُ الضوء (قالها وهو يرفع رأسه إلى السماء)؛ حيث نجمٌ تسلَّل من بين الغيوم وتبعته بعينيها، بينما أَرْدَف: (ألم أقل لك..؟!).

قامت واقفةً فتناثرت ورداتها الذابلات من على ردائها، وسريعًا التقطها وسارا معًا.. كانت حركاتُها متهالكةً ويداها مرتعشتَان وعيناها لا ترتفعان عن موضع سيرِها، هتف بها:

- لا تيأسي فما عهدتكِ كذلك..

(لم تُجب).

- وتابع: "لا زالت عناصرُ السلامة قويةً وعظيمةً في نفوس بنيك، وعليكِ وعليهم أن تواجهوا وأن تَدَعوا اليأسَ والمسكِّنَات، فالطريق طويل وسيبقى معك مَن صدق".

وتركها ليغترف من ماء النيل بيده ويمسح وجهها مرةً... ومرةً... ومرات، حتى لاحت روح الصبية من وجهها ضمَّها إلى صدره وراح يتذكر.. كم جال معها الربوع والقرى والكفور، وكم جَمَعَتْه بالقاصي والدَّاني، وكم مرة سَهِر يناجي طَيْفَها يوم عُرسها ويتخيَّلها أميرةً ترفل في رداء العفة والجلال!!

كانت صورةُ غدرها تطالعه مع كل آية كان يحفظها في صغره من كتاب الله أيام مدرسة الرشاد، لم تمنعه أحلامُ الطفولة وأمنياتُ الصبا من أن يرسم لها بكلماته صُبحًا مقبلاً، وتحرك وقلبه متعلق برسمه، يمناه تحمل وحي السماء، ويُسرَاه تلوح بهَدْي البشير، وبينهما خَطْو الأولين، مَلَكَت عليه لُبَّه فراح يسعى لصلة رحمها ويربط القاصي بالداني من صويحباتها.

فارسٌ حارب الرقّ.. لكنَّ تجّار النخاسة كُثُر، وأميرتُه ثمنها - في سوقهم- غالٍ.. فكّروا ودبَّروا ثم عزلوه عمن حوله وطلبوه للصلح

وتحرك إليهم..

الشارع صامت.. ساكن.. خالٍ..

أنوارُه حمراء قانيةٌ، تحاول الهرب من قناديلها،

ورصاصات الغدر تصارع زنادها،

ولكنَّ الطيور الخضر تنتظر، والحور ترفرف، وأبواب السماء طاقاتُ نورٍ تُتُوق للعَبَق الصاعد..

وما طاشت رصاصات الغدر، ولا ضاعَ أمل الطيور الخضر ولا الحور ولا أبواب السماء سُدّى.

وأفاق من ذكريات ماضيه الحية على فزع العجوز وهي ترفع أذنها من على صدره وتصرخ (قلبك لا ينبض)، وبغير أن تفارق الابتسامة ثغرَه ربَتَ على ظهرها قائلاً:

قلبي نبضه موزَّع في صدور بنيك.. أصحابي، أسمعيه فيهم، وشاهديه في تحركاتهم، وثِقي بهم، واعلمي أنهم لكِ لا لغيركِ، ولن يكونوا عليكِ يومًا من الأيام.

وهَمَّ ليغسل دماءَ جرحه النازف من على وشاحِها فرفضت بشدة.. أرادتها تاجًا على رأسها.. ناولَها زهورَها وقد استحالت نديَّةَ المنشأ فواحة الأريج، حَمَلتْها وأحزانَها وتوارت.

في حين سكّن هو رسائلَه من جديد على منضدة القراءة، وراحت طيور الفجر تغرِّد والشمس تعلو أشعتُها مبشرةً بميلاد يوم جديد.. آتٍ لا محالة.

- - - - - - - - - - - - - - -

- عناوين رسائل حسن البنا

القاهرة... فبراير ١٩٩٧

الخنجر في ظهر عمر..

إلى الشيخ أحمد ياسين.. رمز الحياة في عالم ميت - القاهرة... مارس ٢٠٠٤

المشهد الأول: الخبر

لحية بيضاء.. ثلجية الأصل.. ورديةً صارت.. جسد نحيل.. كهل القوام من عمر السنين الطوال.. بدن تطاير.. رجل طار.. كرسي تحمله عجلات.. لا تتوِّجه زخارف الملك.. مرمي في عرض الشارع.. مكسور العجلات والروح.. سيارات بيضاء تحمل شارات هلال أحمر وتعلّق علي رأسها طاقية حمراء تقف في الجوار.. تزأر مكبراتها.

مآذن جريحة يتحشرج صوتها.. ناقلاً الخبر.. يبتر صوتها البكّاء.. تصمت.. تلوذ بآي القرآن..

شوارع غزة أرحام ولودة.. تقذف بالآلاف من كل صوب نحو شارع مسجد المركز الإسلامي، والمولود علامة حياته الصراخ.. مواليد غزة أعمارهم متفاوتة.. ليس بينهم صغير.. الكل كبير.. الكل يصرخ.. والصراخ في قاموسهم تكبير..

المشهد الثاني: (فلاش باك)

مطرود من رحمة ربه.. جمع أعوانه.. نفس الوجوه التي تلتقي في محافله.. "يهوذا الإسخربوطي" يقف وثلاثون من الفضة تلمع في ظلمة وجهه البائس، الطامع لتسليم مسيح جديد..

"أبرهة الحبشي" يداعب شفته المشرومة ويحلم بيوم يهدم فيه الكعبة..

"أبو لهب" يوقظ زوجه لتحمل الحطب لتستعر نيران الأخدود..

ابن سلول أشداقه تقطر سُمًّا تلعقه أفعى مجلجلة، فتعلو أصوات جلاجلها.. يرقص على إيقاعها فيراقصه كل يهود الدونمة..

أبو لؤلؤة يخرج على الجمع والخنجر في غمده متواريًا عن العيون..

يضحك هرتزل وهو يمد يديه إلى الخنجر تحت طيات الملابس.. ويسحبه.. يشهره..

الخنجر يتحول في يده رصاصات.. طلقات.. قنابل مطاطية.. عنقودية.. ذكية..

الخنجر يسقط من يده.. ينبت في الأرض جرافات.. مجنزرات.. مصفّحات.. مروحيات..

الضحِكات المجنونة تتصاعد من الجمع..

وهرتزل يُخرج من جيبه ثلاث ورقات لعب.. يقلبها.. بين أصابعه يبدلها ويبدلها ويبدلها "لتختاروا".. هكذا قال..

العيون الجاحظة تفتِّش في خلفيات الورق عن صورة "عمر"..!!

يهوذا وابن سلول اختارا الوسطى، أبو لهب وأبو لؤلؤة اختارا اليسرى.. أما أبرهة فقد رفض اللعب، مؤكدًا أنه مع الرابح؛ لأن المهم عنده هو البيت..

دخل أرييل متأخرًا متعللاً بأنه كان ينسف بعض صروح الإنسان.. طلب أن يشترك في اللعب واختار الورقة الباقية..

قَلَب هرتزل الورقة الأولى ثم الثانية والثالثة.. كلهم "عمر".. أبو لؤلؤة اعترض: "شكله ليس عمر".. لكن الجميع أكدوا- وهم ينصرفون للتنفيذ- أن صاحب اللحية الثلجية عمر في ثوبه الجديد.. خرجوا.. وسقط غمد الخنجر على الأرض فاستحال طاولة مفاوضات..

المشهد الثالث: (بورتريه)

عمر القرن الحادي والعشرين.. يتحرك ولا يسير.. يرفع آلاف الرايات ويداه تحملهما جوانب كرسيه.. عيناه ترى أفقًا محجوبًا عنًا؛ لكنه لا يدعي الولاية، مؤكدًا أنه مجرد فرد..

كلماته لهب - نبتت شجرته في طينة مقدسة.. مختلطة بتراب أزهري - يشعل شتاء النفوس.. يذيب ثلجها المتراكم.. فيحيل الكون ثورة.. يبتسم فترى سكينة الراقد في الجنة.. لذا يرتمي صغار روضة المجمع الإسلامي في أحضان بسماته كلما هلَ.. وبذا يوصيهم أهلهم، مؤكدين أن أحضانه الجنة.. أنفه لا ينفعل إلا عندما يحملون إليه خبر شهيد زفوه.. يهتف "هبي يا ريح الجنة".. يسمعها الحاضرون تعبر الأذن للروح.. أحلامه بسيطة (الحرية)..

مشهد البداية

صباح الاثنين ٢٢ مارس ٢٠٠٤م.. قطرات وضوء تسقط من لحية ثلجية.. تتعلق كل قطرة بالشعر الأبيض حتى آخر رمق.. وركعات ليل تحملها ملائك السحر.. ورفيقان تحملهما خطواتهما الوثابة إلى صحبة الشيخ

- قطع-

أعوان المطرود من رحمة ربه أنجزوا كل الترتيبات..

يهوذا أعد الرادار..

أبرهة ملأ خزان الوقود..

أبولهب وامرأته تأكدا من صلاحية الصواريخ..

ابن سلول رفع آخر تقرير للمراقبة..

أرييل جلس على مقعد القيادة..

هرتزل أهداه قطعة من خبز مقدس.. باركه برشٌ دماء عدة مواليد.. وانطلق

- قطع-

الشيخ يرمُقُ الرِّفاق وهم يحملونه إلى كرسيِّه بعين هادئة.. يتحركون.. دعواته تباركهم.. تُطوَى لهم الأرض.. ينظر كل منهما إلى الآخر

- "آه لو كان المسجد بعيدًا"..

يشعر الشيخ بالنظرات يهتف

- "هي الصحبة يا شباب"..

- "ما أجملها من صحبة"..

قالاها دون تردد وفي نفس واحد

تسرح نظرات الشيخ .. يشعران أنهما تجاوزا .. يستجمع أحدهما شجاعته

- هل أفسدنا أورادك في طريق المسجد بثرثرتنا .. متأسفون ؛ لكن ..

يقاطعه الشيخ بابتسامةٍ وضمَّةِ عين ترميهما في نهر رقراق .. فيتنفَّسان نفسًا عميقًا بينما يعلو صوت الشيخ : أسرِعا ، فالوقت أزف ..

وأسرعا وهما يسبِّحان في النهر لا يريدان الخروج .. مسجد المجمع الإسلامي بغزة .. فجرُه ليس كأيِّ فجر .. الروَّاد كُثُر .. القرآن دويُّ نحلٍ في جنباته يدوي .. العيون تتطلَّع لساعةِ دخول الشيخ ؛ علَّه يلتقط منها رغبةً صادقةً ، فتحظى بشرف الولوج إلى قوائم المرابطين ..

ويدخل الشيخ ..

"اليوم مختلف" .. هكذا توالت الهمسات داخل المسجد ..

لم يرتدِ ثوبًا جديدًا .. ولم يضع عطرًا مغايرًا .. ولم يأخذ من لحيته ..

ومع ذلك العيون رأته أكثر شبابًا .. أعذب ابتسامة .. وأقيمت الصلاة و .. "الله أكبر" الفاتحة .. الركوع والسجود والفاتحة و .. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ) (التوبة : ٣٨) .. "الله أكبر .. السلام عليكم ورحمة الله ..

دموع الشيخ كانت تسير خلسةً بين شعر لحيته .. رآها كل من حضر وردَّدوا خلفه "لا ، لم نرضَ بالحياة الدنيا يا ربّ " و ..

ودَّعوه .. تحرك معه الرفقة ..

- قطع-

أرييل يحوم بطائرته..

والجمع القابع عند المطرود من رحمة ربه يشدُّون من أزرِه عبر أجهزة الاتصال:

هيا يا بطل.. ارْمِه كالطير الأبابيل.. تبًّا له ولمن معه.. لا بد أن تغمد خنجرك كاملاً في الظهر.. ويعلو صوت الأفعى المجلجلة طنينًا يملأ أذني "إرييل" يسكره.. يرى الهدف (ثلاثة أهداف) هكذا قال.. وجاءته الإجابة

(المهم عمر.. لا مانع من أحد معه.. لكن تأكد من عمر)..

- قطع-

توارى المسجد عن العيون..

قال الشيخ: "الصحبة يا شباب.."

فرح الشباب..

أردف الشيخ: "أبدية يا شباب"..

كبَّر الشباب..

وهتف الشيخ: "لا لم نرض بالحياة الدنيا يا رب"..

وارتجَّ المكان بدويٍّ انفجار هائل..

وتفتحت أبواب السماء.. تسابقت الملائكة.. غردت الطيور الخضر.. ومن كل حناجر غزة دوَّت التكبيرات تودِّع الشيخ.. عمر.. الشهير بـ"أحمد ياسين".

"الفايش"...

جالسًا على كرسيه..

ممسكًا كوبًا من شاي..

وقطعة فايش حديدية القوام يدسُّها في الكوب بين الحين والآخر، محاولاً- عبر جهد مرسوم بتجعيدات وجهه- أن يقضمها..بينما صوت المذيع في النشرة يؤكد على لسان رئيس الوزراء: "مصر قادرة على مواجهة التحديات"!.

يسمع ذلك فتتَّسع شفتاه بضحكة تسحب على أثرها إحدى فتافيت الفايش التي في يده؛ عابرةً مدخل الفم الخالي من الأسنان- تقريبًا- متحايلةً على اللهاة، وواصلةً لمدخل القصبة الهوائية..لينفجر الرجل في السعال ويدركه صبي القهوة بكوب ماء: "إتشاهد يا عم صابر" ويتابع ويده تضرب ظهر العجور

"هوًّا انت حمل الفايش".

ويفيق العم صابر من سعاله مبتسمًا وقائلاً:

"مصر قادرة على مواجهة التحديات"..

يزدرد كوب الماء ويطيل النظر إلى مشاهد الرسالة الإخبارية لمؤتمر الحزب الوطني.

صوت المذيع يتابع بحماس:

"لقد شدَّد الرئيس على أن مواصلة النموّ وتوسيع العدالة الاجتماعية أولوية رئيسية للحزب والحكومة"

.. قطرات العرق النابتة من أرض جبين العم صابر تطرح ثمارَها بفعل مجهود القتال مع الفايش الحديدي؛ فيقرر أن يسلم الكوب والفايش للطاولة أمامه، معتبرًا أن جولته الأولى في الصراع مع الفايش باءت بالفشل.

صوت المذيع الرسمي عاد يداهمه

"الحزب الوطني يؤكد على تحسين نوعية حياة المواطنين ومكافحة الفقر"..

مثَّل هذا التصريح نقطةَ تحوُّل في الاتجاهات لدى العم صابر؛ فأعطى ظهره للتلفزيون، وأسلم رأسه الملفوف بعمامته الصفراء ذات الأصول البيضاء لبحر نوم عميق....

لا يعرف تحديدًا عم صابر ما الذي دفع قيادات الحزب الوطني لدعوته لمؤتمره؛ غير أنه وجد نفسه جالسًا بينهم! فوق منصة المؤتمر..و يتابع كلا منهم

صفوت باشا يداعب شاربه..

والدكتور زكريا يعدِّل من وضع جلسته؛ بعد أن لاحظ صورته في شاشة المؤتمر..

والدكتور علي الدين هلال يتبادل النظرات مع عز باشا الجالس في مواجهته بالصف الأول..

والبيه جمال "الله يحميه" يراجع ترتيب الأوراق التي عن يمينه..

و"الدكتور شهاب منوَّر في القاعدة..هيبة ما شالله"..

لم يكن المؤتمر كما يشاهده في التلفزيون..كان أكثر بحبحةً وصراحةً.

صعد "عز باشا" درج المنصة، ورفع يديه ليسحب الميكروفونين إلى مواجهة فمه، وقال:

"معنا دليل على دور الحزب في الشارع المصري..راجل من الشارع..عم صابر..ابن مصر البار"،

وقطع تقديمه هدير القاعة بالتصفيق..

الجميع نظر إلى عم صابر والمنصة أشارت إليه أن يقف ليبادل الناس التحية..

بغير وعي انتصب عوده ووقف..انتفخت أوداجه..وراح يلوِّح..بينما التصفيق يعلو وتعلو اليد الأخرى ملوِّحةً..

حتى المنصة تصفّق للعم صابر.. الذي بدا مستغربًا في البداية؛ لكنه مع إلحاح التصفيق راحت غيوم الاستغراب تنقشع تدريجيًّا ليحلّ محلّها إحساس بالطمأنينة والثقة.

صوت الباشا "عز" قطع التصفيق ليؤكد:

"إن مؤتمرنا هذا مختلفٌ؛ لأنه يوثّق لبرنامجه بمباركة الشعب الذي اختار عم صابر نائبًا عنه.. وممثلاً لطبقته الكادحة التي يستهدفها الحزب بالدرجة الأولى.. تقدم يا عم صابر لتقول كلمتك".

وعاد التصفيق بين خطوات العم صابر التي تحمل أثقال ٦٥ سنة؛ تقطع المسافة الفاصلة بين كرسيه ومنصة الحديث، ويداه تلوِّحان طول الطريق للمصفّقين من الأعضاء والعضوات.

العم صابر يتذكر جيدًا ما أُمْلِيَ عليه.. تحسَّس ورقة المِئتي جنيه التي منحها له أحد البهوات..

خطوة عم صابر الأولى ذكّرته بفريق العاطلين على مقهى العاصمة..

والخطوة الثانية ساقت له أن يبدأ بفريق المساطيل؛ أحالتهم المخدِّرات إلى وحوش تنتظر العائدين آخر الليل لتُثبِّتَهم وتقلّب جيوبهم.

أما ثالث خطواته فأوحَت إليه أن يبدأ بفريق الموظفين الذين يعملون بالنهار في الوظائف، وبعد العصر "سريحة" أو على التاكسيات والتكاتك.

فحملته خطوته الرابعة إلى العيش الذي لا يجده إلا بعد جهاد يصل لحدّ العمليات الانتحارية..

وكانت خطوته الخامسة نحو المنصة حافزًا ليبدأ بالشقق التي ارتفع أسعارها، وهو ما تسبَّب في تأخر سن الزواج والعنوسة والجواز العرفي والدكاكيني، وانتشار الشقق المشتركة وضاعت الأخلاق والسلوكيات..

وحثَّته سادس خطواته على أن يبدأ بكوسة التعيينات والترقيات والعمد والعمداء والبعثات والمبعوثين؟

ونقلته خطوته السابعة إلى ملف الفساد؛ حيث الملايين المنهوبة والكبار الذين تعجُّ بهم زنازين الخمس نجوم في مصلحة السجون، وقضايا الدم الفاسد وسرقة الأعضاء، وبيع الآثار، والاحتكار، والعبَّارة التي غرقت، والقاطرة التي بأهلها احترقت، والصخرة التي على أهل الدويقة وقعت..

كلما حثَّته خطواته على أن يشهد بالواقع؛ أكد له ضميره الحزبي أن هذا كله لا يعدو كونه مهاتراتٍ من "الآخر" المعارض طبعًا والذي لا يجلب على البلد إلا عدم الاستقرار..

وقطع حبل تفكيره "عز باشا" وهو يرفع الميكرفونين أمام قامة عم صابر المنتصبة، قائلاً بثقة: "قول كلمتك يا عم صابر".

نظراته اخترقت جدار قاعة المؤتمرات البعيد.. عبَرَته لتصل إلى غدٍ تحمله أيامه إليه حين يقف بين يدي ربه فردًا.

أسماعه تلاشت منها طرقعات أيادي أعضاء الحزب؛ التي أدمنت التصفيق، وحلَّ محلَّها صرخات "أم جابر" المتكررة على جابر؛ المدفون بغير قبر في بحر فساد ابتلع العبَّارة وجابر..

يده صارت عاجزةً عن أن تلوِّح للهاتفين باسمه من أبناء الحزب؛ بعدما تذكرت مشهد أيادٍ وطنيةٍ؛ كانت تمتد لتهتك حرمة أجساد بنات البلد .. أيادٍ متحرشةٍ بأعراض لا فرق فيها بين موقف سياسي وآخر ترفيهي.

قدماه صارت عاجزتين عن حمله أمام محفل الحزب؛ الذي سمح لأجهزته أن يُعلِّق الاستجواب أبناء البلد من أقدامهم.

جسده صار رافضًا لأنفاس الهواء المعبَّقة بروائح حزبية صِرفة؛ استبدلت ذرات الأكسجين فيها بذرَّات الولاء للحزب.

لسان عم صابر سعى ليهتف رافضًا من أعماقه، لكنه تذكر مصير من هتف في عصر الحريات.. تذكر الطوارئ.. والتعديلات الدستورية.. والمحاكمات العسكرية.. وأناسًا كانوا ينوون الهتاف.

كما تذكر رجلاً يُدعى حمادة عبد اللطيف؛ هتف من أجل مستقبل ابنته؛ فأصابوه بشلل رباعي[1].

وتجسَّدت أمامه صور المسحولين في الشوارع ... لمجرد الهتاف.

صارع عم صابر خوفه ليهتف رافضًا .. لكن جسده كان أوهن من أن يتحمَّل أوهام العبور إلى المستقبل..

كان بدن عم صابر أقل قدرةً على المقاومة، فصرخ (آآآه) قبل أن يسقط ....

وسقط عم صابر .. من على كرسي القهوة لتدركه أيادي الناس من حوله سريعًا،

فتح عينيه ليجد حلقةً من الوجوه تحيط دائرة سقوطه، والكل يحدق فيه مبتسمًا قالوا في صوت واحد:

"يا راجل إنت لسه ما مامتّش".

انتفض عم صابر واقفًا وهو يقول

"مصر قادرة على مواجهة التحديات"،

وابتسم بخبث ثم أردف

"مؤتمر الحزب هوا اللي بيقول كده"،

وراح يفتش بعينيه عن الطاولة الحديدية قائلاً لصبي القهوة: "فين الفايش يا وله؟ والله ما أنا سايبه".

١٤/١١/٢٠٠٨

أصبحت جدًا فجأة...

دون أن أنظر في ساعتي

أو حتى أرمي بصري على ورقة التقويم المعلق على حائط مكتبي

ومن غير أن أتذكر التاريخ المدون أسفل هويتي

حملتني أصابعي التي تقلب صفحات الكمبيوتر إلى صفحة على الفيس بوك

الباب موصد على غير العادة

لا يمكن أن تدخل إلا بإذن

قررت أن أطرق الباب

لفت انتباهي عبارتها

"إن أخبرتك سأقتلك"

طرقت... وطرقت... وناديت: (افتحوا... افتحوا... افتحي... أريد أن أعرف... أريد أن أموت)

لم يجبني أحد

حاولت البحث عن نافذة أرى منها سفاحة المعرفة... أطعم تفاحتها و... أطعمها تفاحة آدم وأسلم الروح

كل الطرق مغلقة

تركت على بابها رسالة تحمل هويتي وطلب رسمي (هل دخلت الفيس بوك يا سيدتي لتعملي فيها خط الصعيد)

وغادرت... رافعًا راية الانتظار... ومطلقًا بخور الاستعداد

فجأة...

اقتحمت علي عالمي

ضربتني على أسفل رأسي من الخلف...

واستيقظت محمولاً على "الكيبورد" ومقيدًا إليه... أزراره تداعب ظهري وشاشة سوداء تطوق عيني

قالت في حنق بالغ: أنت من تريد أن تعرف؟

قلت في سعادة: نعم... وكنت أنتظر قدومك و..

قاطعتني: ستدفع الثمن

وسحبت الشاشة السوداء من على عيني

ورمت وجهي في مرآتها

وقالت: طالع نفسك

كانت المرآة ديجيتال

قسماتي متجسدة أمامي

شعرات بيضاء تغزو رأسي

وأخرى حمراء تطوق نظراتي

وسنوات تلقي بظلالها على تقاسيم وجهي

وتحفر في نفسي أخاديد لحياة كانت

تحجرت عيناي أمام صورتي... كانت نظراتي ترمقني لأول مرة

فجأة رأيت الشيب يدب في أركاني

يزرع في روحي حقولاً من الذكريات

وأحصد فراغًا وخواءً وزهورًا ذابلة

سحبت مرآتها بقوة وسرعة وألقت بوجهها مكان المرآة

فوجدت ربيعًا يبدأ ... زهورًا تصارع قشرتها لتتفتح ...و ضفيرتين مجدولتين ... ومهرة تركض بكل فتوة في نظراتها ... لهثت أنفاسي

ضحكت وهي تفك قيدي وتدفعني من على الكيبورد لأسقط

.... صوتها يتردد من حولي وأنا أموت (ها أنت عرفت الآن .... فمت ياجدووو)

القاهرة أغسطس ٢٠٠٨

صخرة على جسد مفتول العضلات

كان الجسد المفتول العضلات يئنُّ تحت وطأة الحجر الثقيل الجاثم على صدره..

يجمع صاحبه كل قوته.. يتذكر مشهد فريد شوقي في فيلمه الشهير "عنتر بن شداد" وهو مربوط إلى الحائط بالحجارة، ثم يثور فتسحب عضلاته الجبارة سلاسل القيد لتستحيل حجارة الحائط مطرقةً على رءوس أعدائه يضرب بها ذات اليمين وذات الشمال.. يتذكر قوة فريد بن شداد أو عنترة بن شوقي، ويسعى للتخلص من الحجر بدفعه بعضلات الصدر أو الترايسيبس أو حتى الباي سيبس أو ما شابه؛ لكن كل قواه تخور..

أيام مرت وشهور ومفتول العضلات يقاوم الصخرة ويحاول عليها أن يثور.

لم يكن أحد يعلم أنه حي.. أو حتى موجود، وذلك بفعل مقاومته للصخرة التي ضغطت على الأرض من تحته؛ لتحتويه حافرةً له تابوتًا وناحتةً في بطنها لقده رحمًا..

الذين قذفوا عليه الصخرة فقط كانوا يعلمون أنه حي..

جعلوا الإضاءة والديكور المحيطين بمفتول العضلات وصخرته تحيل المكان إلى ميدان، يغدو الجميع حوله ينظرون نظرات عجب واندهاش وانبهار إلى الصخرة الجاثمة على الأرض والتي ترتعش بين الحين والآخر بفعل الراقد تحتها، ويمصمص الجميع شفاههم المتشققة، ويضربون أكفهم البائسة، ويهتفون كلٌ حسب توجهه.

- فقائل: هذا من أثر عمليات التنقيب على البترول التي تقوم بها حكومتنا الرشيدة.
- وثانٍ يؤكد: أن حركة صخرة الميدان بفعل حفريات المرحلة الجديدة من مترو الأنفاق.
- وثالث يقول بثقة: إن الصخرة باب سري لأحد سراديب الأجهزة الأمنية.

- ورابع يهتف بتضرع: مدد دي الطاهرة يا أسيادنا زعلانة عشان المولد اتلغى السنة اللي فاتت!

- ويرده خامس: لا دي العذراء..

- ينظر سادس: هذه ظاهرة جيولوجية حيوية؛ لأن مصر تقع في الجانب المرتعش من القشرة الأرضية.

- ويقول سابع هازئًا: مرتعش إيه.. دي بتتهز لأن ده وسط البلد!!

والحقيقة أن مَن قذفوا الصخرة على مفتول العضلات منذ قرابة العقود الثلاث كانوا لا يستهدفون قتله أو القضاء عليه؛ لأنهم ببساطة يقتاتون من دمه.. يشربون عرقه..

يستنسخون بعض خلاياه لندرتها..

ويتاجرون في نخاعه جزعًا جزعًا..

ويبيعون نسله في أسواق النخاسة، ومَن يرفض منهم يطاردونه أو يطردونه...

كما أنهم يحلبون أفكاره..

وكل يوم يكتشفون أنه يمتلك كنزًا جديدًا يخبرهم به في ساعات الصفاء التي يعدونه فيها بمساعدته على الخروج من عنق الزجاجة!

وعدوه مرات عديدة بأن العلم الحديث تقدمت معه الآليات والوسائل التقنية، وأنهم اتفقوا مع كبرى الشركات على إنتاج إحدى المعدات الحديثة جدًّا لرفع الصخرة، وخلال أربع سنوات سيكون الانتهاء من صناعة الآلة الرهيبة..

هزَّ رأسه فرحًا.

أقنعوه بأنه يجب أن يتحمل الألم لأن تاريخ أسلافه وآبائه وأجداده في ذلك حافل.. وسيضيع كل تراثه إن تألَّم أو تأوَّه أو حتى أصدر صرخةً.. وبثوا في رُوعِه أن الألم الذي لا

يحتمل بالتدريج يقل وأن العادة تسقط الدهشة ومعها ما يخالطها من ألم وهمٍّ وغمٍّ وخلافه.

وأحضر أصحاب الصخرة خبراء عدة لمفتول العضلات:

فالخبير المتخصص في التنمية البشرية قال بياقته شديدة البياض، وشعره الذي يسوي بيده خصلاته كلما تدلّت على عينيه:

- "إن القدرة على تحمل الألم تنبع من طاقةٍ في العقل الباطن يدعمها الأدرينالين وهي تدرب الجسد على مقاومة آلام الموت التي تنمو تدريجيًّا، وبالتالي تطيل عمر الإنسان".

ومن ناحيته رفض استشاري الصحة العامة واللياقة البدنية أي ادعاء بأن ثبات الجسد تحت الصخرة يسبب تعفن الجسم وإصابته بقرح الفراش، مؤكدًا:

- أن قرح الفراش تصيبه في حالة واحدة، وهي أن تكون الصخرة وقعت عليه وهو نائم على السرير وليس على الأرض التي هي أم الإنسان وأن أي عفن يمكن أن يحدث ما هو إلا نتيجة لبعض الفطريات التي لا تضر؛ لأن الفطر كله منافع، ولا أدل على ذلك من الماشروم - عيش الغراب- الذي يصل سعره لشيء وشوياااات!.

وبالطبع صاحبت حالة الإقناع- المدعومة بالآراء المتخصصة- حول وجوب الصمت حالة أخرى من التأصيل الشرعي للصمت؛ حيث كان يزور صاحب العضلات بصفة دورية شيخ جليل، وخلال الزيارة يُذكّره بقصص السلف الصالح الصابر على ابتلاءات الله دون أن يقع في شرك "أن يشكو الخالق للخلق"، ويضيف:

"هوا حد ليه في نفسه حاجه.. ده نفس داخل ونفس طالع.. ولا بد من التسليم بقضاء الله فمَن لم يرض بقضائه ويصبر على بلائه فليخرج من تحت سمائه وليتخذ له ربًّا سواه.. وحاشا لله أن تكفر به".

وعندما كان يمل مفتول العضلات من الصبر سريعًا ما كان الشيخ يرده إلى أنه لا فرارَ من قضاء الله، ويشرح ذلك قائلاً:

"قضاؤه وفيه رحمة.. ربما هذه الصخرة أفضل من غيرها يعني من الممكن أنها كانت ستقع على رجلك فيقطعوها أو ربما ترفعها وتسير فتصدمك سيارة نقل وتموت.. يا راجل احمده على كده وأكثر من كده، وكن من الحامدين في السراء والضراء".

وكان أصحاب الصخرة يشغلون على مفتول العضلات حياته.. ويملأون عليه فراغها.. وطول أيامها.. يؤكدون تعرُّض حياته لكارثة تهدد بقاءه وهي تساقط شعر رأسه، ومن ثمَّ يعقدون مؤتمرًا.. وندوات وحلقات نقاشية.. ويصدرون توصيات ويُشكِّلون لجان عمل ولجان متابعة ومشرفي تنفيذ للسيطرة على الوضع.

ويكتشفون أن أظافر أصابعه بدأت تكبر بطريقةٍ غير مناسبة، وبالتالي لا بد من احتواء الموقف، خاصةً في ظل فتاوى الشيخ الجليل بأن هذا "ضد سنن الفطرة والعياذ بالله".

ويختلفون حول كيفية معالجة الروائح المتصاعدة من تحت الصخرة أو كيفية القضاء على الحشرات التي بدأت تزيد من حولها أو حكم أدائه للصلاة بالإيماء، وهل تكفي العينين لهذا الغرض أم لا بد من تحريك الرقبة.

وهكذا امتلأت على مفتول العضلات حياته بقضايا وآراء ولجان وأحيانًا انتخابات للجان ومشاريع قوانين ورؤى مستقبلية وخطط خمسية وخمسينية ومئوية وألفية.. فنون وسياسة وصحة وإعلام وأمن واتفاقيات ومعاهدات واتفاقيات وحروب كلامية والرأي

والرأي الآخر.. وغيرها كثير من مظاهر الحياة العامرة التي كان أصحاب الصخرة فاعلين فيها بطريقة رائعة،... بينما مفتول العضلات يتابع بمنتهى الاهتمام في صمته الصحي والإستراتيجي والعقائدي.

مرَّت السنون والسنون وفي ذكرى سقوط الصخرة على مفتول العضلات، وتحديدًا عندما كان مفتول العضلات في إحدى لحظات تأمله الصامت تسلل من بين الجموع المحتفلة بالذكرى القومية طفل صغير هاجمه نداء الطبيعة فرأى أن يلبيه إلى جوار الصخرة.

القطرات الحارة المتدفقة من بدن الطفل.. دفعت بغير وعي مفتول العضلات ليصرخ في الطفل ناهرًا إياه

"ولد عيب يا قليل الأدب"

اندهش الطفل وهو ينظر للعينين العائمتين في بوله والفم الذي يدفع بزفيره الماء.

أخرج الطفل منديله.

مسح الطفل وجه مفتول العضلات.

وابتسم الطفل.. وابتسم مفتول العضلات.

"أنا آسف يا عمو"

قالها الطفل وأردف

"بس على فكرة أنا ممكن أجيب أصحابي وندفع الصخرة عن صدرك.. هم صغار.. لكن والله ممكن.. لا تخف يا عمو.. سنعود".

وابتعدت خطوات الطفل.. وشعر مفتول العضلات بتأنيب ضمير..

والتفت الطفل قائلاً:

"عمو متى سقطت عليك الصخرة؟".

صوت مفتول العضلات ردَّ والمرُّ يتناثر حول شفتيه رزازًا :

"في أكتوبر سنة ١٩٨١م".

القاهرة [١١- ٠٥- ٢٠١٠]

الرجفة

- الواقع

لم يكن يدرك أبدًا أنه سيحيى هذه اللحظة مرة أخرى... إلا عندما ودعها في أول لقاء وصارت ذات اللحظة متكررة مع نهاية كل لقاء..... انتفاضة داخلية، رعشات تسري في كل ما سكن بدنه من أعضاء..

- العودة

كانت السنون قد استطاعت عبر ممسحة الوقت أن تمحو ذلك الإحساس من خانة الذاكرة التي كانت تتلاشى أصلاً... غير أنها أيضًا برت العديد من الأقلام وسطرت عشرات الأوراق عبر عشرين سنة والعجيب أنه لم يعد يذكر من ذكريات هذه السنوات إلا القليل، ودومًا يقول هازئا عندما تفيقه ذكرى قديمة:

- أيام مكتوبة بحبر باهت...

كان طالبًا... يؤمن بالقضية... يحمل بين كفيه روحًا ترفرف حيث حلت... ورغم كثير من هتافات القضية والهوية الإسلامية إلا أنه كان يحب هتاف (يا حرية فينك فينك... أمن الدولة بينّا وبينك)...

حين رموه في عنبر الجنائيين (كنوع من أنواع الاحتفاء الزائد والكرم الفائض) حسب وصفه في السنوات الباهتة، استقبله المعلم (سيد ضرفة) بكثير من التوجس قبل أن يعلو صوته الرائق:

- ربنا يكفينا شركم يا أزتاز!

قالها مثبتًا موقفًا مضاد حين علم أنه قادم من مباحث أمن الدولة.. وبدأ بيديه الخشنتين المرور متفحصًا آثار (الحفاوة الزائدة والكرم الفائض) التي تهبط خطوطًا سريالية رسمتها أيادي الكرم الأمني على قفا الفتى السياسي وتمتد لتستر كثيرًا من ظاهر البدن وربما الباطن؟... وهامسًا تساءل المعلم "ضرفه"

- همّا اللي عاملين فيك كده....

ولم ينتظر إجابة.... وأضاف بذات الهمس

- مش بقولك ربنا يكفينا شرهم يا أزتاز.

وبادر المعلم " ضرفة" بالحركة شامخا بكتفيه ليرتفعان عن منبت رقبته ومفسحًا المكان عبر كنس البشر الذين افترشوا الزنزانة بقدميه، وهو يخرج طبقة مغايرة تمامًا لصوته الذي كان مستعذبًا منذ لحظات، طالبًا أن يفسح النزلاء الطريق

- وسع رجلك ياد يا إبن ال.... وإنت نايم في بيتكم يا ... وغور ينعن أبو....

وهكذا تحرك الركب مستهدفًا (المراية) حيث ما يمكن تسميته بالمقصورة الرئيسية...

- اتفضل يا أزتاز...

لم يكن مختارًا في الجلوس... فقبل أن يكمل المعلم دعوته كانت يداه قد سحبت (الأزتاز) وأجلسته على البطانية التي تتصاعد من حولها رائحة العطن وربما البول...

- مايقعدش هنا إلا الغالي.... وأنت محترم... رغم إنك متشلفط...؟ بز محترم.

وقبل أن يكمل كان قد مد يده بسيجارة وولاعة

- والمحترم غالي... ولع ولع ربنا يولع فيهم بجاز وزخ

صدمت نوبة كرمه عيون (الأزتاز) التي اتسعت رافضة لكنه سرعان ما تذكر

- آه تبقى صايم.... نخليها لك لبعد الفطار عشان تحبز ما تتحبز

وأعجب المعلم (ضرفة) بالقافية فراح يملأ الزنزانة بضحكات أشبه بدفقات ما بعد الغثيان وهو ما جعل (الأزتاز) يتراجع بصدره للخلف محاولاً الفرار من آثار ما يمكن أن يحدث لكنه حين اكتشف طبيعة الموقف بتضامن السادة النزلاء في الضحك مجاملة على الأقل للمعلم كبير الزنزانة ونبطشيها... أعجبه الموقف والنقلة النوعية الحادثة في حياته والتي اعتاد فيها خلال الأسبوع الماضي ألا يرى وجوها وألا يستشعر إلا بتلك الآلة الشيطانية التي تبرم الجلد عن طريق نبضاتها الكهربائية... الآن هو يرى... صحيح وجوه قلقة لكنها تشرع الشر لأن بحر الواقع لا مكان لهم فيه... والآن هو بين بشر... صحيح صار (أزتاز) لكنهم لا يتلذذون بالعذاب... يمارسون نوعًا منه لكنه من أجل البقاء لا الفناء

عندما تيقن من إحساسه ترك نفسه يضحك... وضرب كف المعلم ضرفه بكفه وهو يقول له:

- رمضان كريم يا معلم.... نحبز بدل ما نتحبز... حلاوتك يا معلم

يوم بليلة قضاها مع المعلم والسادة النزلاء الذين كانوا لا يألون جهدًا في خدمته، في البداية كانت الخدمة بالأمر من المعلم لكنها سرعان ما تقاتلوا عليها....

من ينظف حول الـ (أزتاز) أو يطلب له شاي أو يحمل باب الحمام لأن (الأزتاز عايز يعمل زي الناس أو عايز يتوضى أو حتى يختلى ببطنه) وهذه الأخيرة عرف بعدها أنها تعني

إخراج الريح! وبالطبع ميزة تركيب باب الحمام لم تكن تمنح إلا لـ (الأزتاز) ولا يستثنى من سياسة الباب المفتوح أحدًا حتى المعلم ضرفة (بذات نفسه) الذي شرح له الأمر وأنعم على ذاته بهذا التأكيد .

وعبر ستة صلوات أداها (الأزتاز) منها التراويح... كانت الزنزانة تتحدث همسًا بل وتضامن معه في صلاة الفجر المعلم (ضرفة) وآخرين دون حتى أن يتوضأ أي منهم، ولما انقضت الصلاة مد المعلم يده في خشوع إليه قائلاً :

- حرمًا يا أزتاز... كرب... ربنا يفكنا منه على خير خلينا نعرف نتوضى ونزتحمى بمزاج.

وخرج (الأزتاز) تمامًا من حالة خشوعه في الصلاة إلى أعتاب المعلم (ضرفة)... حاول كل جهده في أن يمسك شفتيه بأسنانه ولكنها انفلتت لتسحبه على ورقة الجريدة التي استحالت سجادة صلاة... وتأخذها معه في نَوّة ضحك أطاحت بكل الزنزانة.

بعد صلاة الظهر أخبره المحامي أنه عائد لأمن الدولة...

- لا مناص لأن التأشيرة بتقول لا يُفْرَج عنه إلا بعد العرض علينا

قالها المحامي وهو يودعه بعد أن أكرم كل فرد من الأمناء والعساكر والمخبرين كل حسب مكانته في القسم...

لم يسمع دعوات المحامي له وعلى الظالمين.... كم اصطدمت كل وصايا الصبر بحائط الخوف من العودة إلى حيث لا ترى ولا تملك حركة...

المعلم (ضرفة) تلقاه عند باب الزنزانة بصمت رماه على كل الزملاء النزلاء... بعد ثوانٍ قال بصوت يصارع أحباله

- إنت راجع لولاد ... تاني

وتمامًا لم يخرج عن عادته.. خطفه من يده وأجلسه على مكانه... ودس في جيبه سيجارة كان قد أخذ منها نفسًا واحدًا وأطفأها..

- عشان تحبز بعد الفطار وما تتحبز

وانفتح باب الزنزانة... استدار (الأزتاز) ووقف كل من في الزنزانة... ليودعوه...
لكن الدعوة كانت للمعلم (ضرفة) خرج دون أن يسأل...
في لحظات كانت الزنزانة قد انتخبت بالإجماع (الأزتاز نبطشي لحد ما يرجع ضرفة أو يخرج)
لم يتأخر (ضرفة) عاد سريعا وكتفاه أقل من مستوى منبت رقبته بكثير... وقف خلف الباب ينظر لـ (الأزتاز) ويضيق عين ويوسع أخرى ويوجه نظره مرة إليه ومرة إلى نقطة مجهولة في جانب الباب البادي على يمينه... أخيرًا بدأ يدور شفتيه وهو يمطهما خارجًا ثم نادى عليه

- بص بقى ما هو أنا بحبك وهما لأ، وبعدين يضربوك هما... إنما أنا لأ

كرر (لأ) بصوت انخفض تدريجيًا... ثم وجه بصره ناحية أحد النزلاء ناداه فتحرك سريعا، وقبل أن يصله كان المعلم قد رمى في فم النزيل حبة لم يسأل عنها هذا الأخير.. فقط ابتلعها في صمت وترحيب وسكينة... فلقد اختاره المعلم للمهمة...

كان (الأزتاز) يصرخ حسب أوامر المعلم الذي يضرب بكل قسوة بيديه ظهر النزيل المسكين الذي لم تَبْدُ عليه أية علامة للألم بفعل (برشامة المعلم التمام) وإن كان ما أعتقد (الأزتاز) أنه بفعل إدمان الألم باعتباره أهم أسباب الحياة.

ظل صراخه يعلو حتى أنهكه التعب... وهكذا جلس المعلم ضرفة مرتاح الضمير بعد أن وازن بين الأمرين (الواجب والصح من جهة ونشتغل الحكومة من جهة ويفكروا إننا معاهم) وعندما أراد أن يشرح وجهة نظره أكثر أضاف ماهو المزل بيقول ولا مؤاخذة إنت تنام مع الحكومة بز ما توريهاش.... .

عندها وضع (الأزتاز) كفه على فم المعلم وقال مبتسمًا

- رمضان كريم يا معلم
- الله أكرم بز على فكرة شتيمة الحكومة حلال

وحظيت فتواه بأغلبية تامة داخل الزنزانة... بحث المعلم بعدها عن أي نفس تبغ ليدخنه فلم يجد. غير أنه رفض أن يستعيد أيضًا السيجارة (ناقصة النفس) التي أهداها لـ (الأزتاز)... وظل الجميع ينتظر لحظة الرحيل حتى قرر المعلم الغناء معلنًا

(إزماااااااااااااع دا الحديد ح يزمع... حتى الشاويشية والصولات ح تزمع... حتى الحيطان والبيبان ح تزمع....) وبدأ في الغناء مختارًا آخر أغنية يمكن أن يصل إليها خيال من عنده مشكلة مع حرف السين مثل المعلم... حيث احتل مكان على الحجار وأثبت انه يملك صوته ولا يملك مخارجه

- بز ميلي... بز ميلي... واتبزمي لي... وشاروي ع الجنة وإرزميلي... زكته وأنا أروح بعيد...

- الوداع

لم يكن يحتضننه فحسب وهو يودعه... لقد كان يتشبث بالمعلم... رجفاته لم تكن ظاهرة لكنه ينتفض داخليًا ... كل أجهزته مستنفرة... سيغادر عالم البشر إلى عالم لا يرى فيه ولا يملك حركة... ومن خلف القضبان جاءه صوت المعلم أثناء آخر خطواته

- إن شاء الله ح تحبز وما تتحبز

– القاهرة ٩ يونيه ٢٠٠٠م

لقاء على باب الرحيل

مدخل

كان عليه أن يدرك جيدًا أن اللقاء تأخر رغم أن الوقت لا يزال مبكرًا...

وأن التجربة كانت ضرورية... وهذا لا ينفي أنه كثيرًا ما واجه بها نفسه...

وأن الألم أحد أسرار الحياة... مستثنيًا طبعًا آلام أسنانه...

وأن الحلم دومًا لا يكون على السرير... فلقد رآه يتحقق وعاشره ١٨ يومًا

وأن الرحيل محتوم... وغلق الحقائب على الملابس وشفرات الحلاقة والأمل أهم ملامح الاستعداد

بعد اللقاء مباشرة

واجهه حارس الأمن على باب المرآب، مبتسمًا ابتسامة وظيفية تتسول مكافأة عليها

- شرفت يا أفندم

وهو يرد التحية لم يجد في جيبه أية فئة صغيرة من نقود... فرد التحية بابتسامة مستريحة وسخية...

وحين واجهته السيارات المرصوصة على جانبي الممرات في حميمية شعر أن لغة ما تربطهم جيمعًا.. حالة من حالات الحكي أو البوح كل سيارة تبث لجاراتها حالها وحين يبدأ القص تلتزم كل السيارات الصمت...

لم يجد سياراته بين المُنصتين!

... وحين عاد إلى عامل الأمن ليسأله عن طبيعة الطوابق وآليات الوصول حال النسيان...كان قناع الابتسام مخلوع وأجاب بوجهه المصري المطحون بمطرقة راتب هزيل وسندان احتياجات تتوحش...

- مافيش حل غير إنك تدَوّر... افتكر أنت نزلت كام دور وغالبًا ح توصل... لكن ابدأ من تحت

أشار نحو ممر ضيق... ومصباحه الأصفر ذكره بنظيره الذي كان معلقًا في الممر المؤدي إلى حظيرة المواشي ببيت عمته .كم يشتاق إلى أيامها التي لن تعود ..

وربما أشار إليه الضوء مناديًا فلبى النداء وقرر النزول للبحث والوصول....

اللقاء

كان قبل دقائق معه... يتوسط الدكتور الطاولة بينه وبينها

لم يهتم في البداية كثيرًا لأمر الباحث العجوز رغم حميمية هيئته وحواره حول مستقبل العقل العربي وقدرته على التحرر من قيوده الأيديولوجية والدينية والعرقية سعيًا إلى التعايش وبناء مستقبل جديد

لفتت انتباهه الفتاة...

كان يرميها بنظراته كلما تيسر

لا يمكن أن تحدد لها سنًّا بعينه... نضرة جدًّا وعيناها على اتساعهما تصرخان ألَمًا...

كانت قد سحبت أوراقها من حقيبة يدها فسقط القلم...

وهبط برأسه لتلتقي جبهته مع جبهتها في صدام مفاجئ أثناء قصدهما القلم... وتلاقت عيناهما

كان مصرًا وكانت تستصرخه...

رفع رأسه في مواجهة الدكتور

- مصر تغيرت يا دكتور.... اختزلت التاريخ... سبعة آلاف سنة في لحظة

كان ظهر الدكتور منتصبًا... وعيناه تنطلق نظراتهما الزرقاء على استواء طبق فنجان القهوة المحاذي لهما وصولاً إلى وجهه... وحين وضع الفنجان على الطاولة قال

- معكن حق في حماسكن... فقط أريد أن أصحح... لم يَنْهَر مشروعنا...لكن كان الواقع إنه مشروع الممانعة كله كان مستهدفًا... نحنا ما تركنا شيء... وصل الحال لانضمامنا للمقاومة المسلحة في الجنوب... انتهت السبعينات وسحبت معها أرواح كثير... كانوا بيستهدفوا... يجيلك خبر فلان بقناص أو بعبوة مفخخة أو حتى انفجار أنبوب البوتجاز.....

حين سوت بيدها خصلة من شعرها الليلي الغجري العنيف... كان الدكتور يسوى أيضًا شعره بكف يده اليسرى بينما يلوح مستعرضًا وهو يقول:

- الكل كان مستهدف... تقدر تقول لي... ما الذي دفع الشيخ إمام للانفصال عن نجم بعد حفلة باريس... ولا تقل لي هي خلافات فنية

وقطع الحديث بسؤال عارض

- تدخن؟

- لأ

- فجأة أحسست برغبة في أن أشعل سيجارة...

والتفت حوله إلى الطاولة المجاورة وطلبها بمنتهى الشياكة... تسولها... بينما أشعلها له المانح... وقبل أن يستدير كان قد خلع الابتسامة الممتنة لصاحب علبة السجائر وتابع حديثه موجهه إليها

- الشيخ إمام ونجم عرفا أن الحكاية خلاص... وأن المقاومة زمنها ولى وأن الدور انتهى ولابد من الهدوء... ومصطفى محمود تصوَّف... وغيره طبّع وغيرهم وغيرهم، وحتى الإخوان اتفقوا مع السادات... دخلوا اللعبة... وبعدهم الناصريين والوفديين. و... قاطعه وهو يوجه حديثه إليها

- إذن اتفقنا يا دكتور فعلاً الكل كان يلعب ولكن من نزلوا التحرير من يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ لم يكونوا يلعبوا... لم يبيعوا

احمر وجه الدكتور وهو يستدير إليه...

- كان مقصود ما حدث... النظام كان بدأ يقرف من رائحة عطنة... أراد تغيير للوجوه وحدث اتفاق جنتلمان بين الثوار والنظام أو بالأحرى المنظومة

قامت منتصبة فجأة... كانت ترتدي حزامًا ضخمًا يحوي خصرها الدقيق... لمع معدنه في وجهه فجأة

- سأعدل الـ (ميك أب) وأعود

مد يده أمسك يدها التي طوقت ذراع الحقيبة

- لأ... من فضلك دقيقة قبل أن أنصرف

قال وهو في مواجهتها وبينهما الطاولة

- حتى لو كان كلامك صحيح يا دكتور... فقد رفضنا الاتفاقات الجنتلمان ودفعنا ثمن الرفض دم.... وصعب الدم يضيع... عندنا في الصعيد يسمونه (تار) و(التار نار) يا دكتور ولا يشعر لسعتها الدائمة إلا من نبهت أعصابه الغازات المسيلة للدموع في الميدان...

إصرار

حين قرر مغادرة الطاولة التي جمعتهما ألقى على النيل نظرة أخيرة من خلف زجاج الفندق المسحور - هكذا دومًا كان يراه- وابتسم

- سعدت بلقاك فعلاً يا دكتور...

وسحب يده من قبضة الدكتور وحملها مع بعض من ألم وانسحب

قرر هذه المرة ألا يسأل عن الـ (باركينج)... وأن يصل وحده.

حسبما هدته ذاكرته التي تسقُط الطرق والشوارع والعناوين من ثقوبها، تحرك مضيفًا قليل من الحساب المرتبط بالاتجاهات... واستطاع بخبرة ليست بالكبيرة بعد أن دخل أحد المصاعد أن يفرق بين مصعد النزلاء والمصعد المؤدي للمرآب السفلي...

وصدمته الخيارات... فكل أزرار المصعد متشابهة وتسبقها علامة السالب... وهو لم يتذكر من كثرة الممرات التي نزلها في أي منها وضع السيارة

- كان وضع السيارة خارج الفندق الفخم بالتأكيد أسهل وأوفر

هكذا كانت أصواته تحادثه والمصعد يهبط به دون أن يشعر

في العتمة

في عتمة النزول التي تجره إلى عمقها كان عليه أن يحذر لخطواته هكذا قال له الحارس قبل أن يغوص فيها ...

لكن لا يمنع حذر من قدر

ارتطمت قدمه الهابطة بجسد متكوم ... و

(آآآه) صدرت عن حنجرة غير مصرية ...

حنجرة لم تزل آثار نباتها معلقًا بأذنيه وروحه

أشعل مصباح هاتفه المحمول ... فوجده؟

إنه الدكتور الستيني السن .. الوقور الطلة والحميم الحوار على قسوته . يجلس على طرف السلم

متكومًا و ...

دامعًا و ...

باسمًا!

- كنت أعرف أنك لن تصل بسهولة

أجاب وهو يسوق كل أعضائه إلي حيث يستقر

- خيرًا يا دكتور ... إيه اللي حصل

وتقاطر جسده إلى جوار القوام الرياضي الذي يرفض أن يبارح مكانه وتقاطرت معها دموع الدكتور التي أرغمته على الخضوع ..

- كرهت نفسي فجأة... كرهت حديثنا المقنع والمقفى والتنظيري

كان يتحدث بغير توقف وبلا رغبة في غير الاعتراف....

قام من مكانه... راقصًا للباليه يجر خلفه خصمًا يهرب منه...

- ما كان ممكن نتعرى قبال البنت... نداوة وعيها أكثر طهرًا من تعرينا... قديش كنّا أجبن من أن نواجه أخطاءنا... كتير كنا بنهرب من عجزنا ونبرره ونأطره

لم يعد الممر مرًا ولا السلم سلم

انتقل الدكتور برفيقه إلى اجتماعات الوطن والقضية والعدالة الاجتماعية في خلية تروتسوكية... وبعدها خرجا ليدركا ورد الرابطة في إحدى الكتائب الإخوانية...

ثم انتهى بهما المقام على الجبهة في جنوب لبنان يستهدفون الاحتلال الصهيوني....

المشاهد سريعة الإيقاع... موسيقاها صاخبة... ديكوراتها واحدة والإضاءة تخفت تدريجيًا... وكذا الأفكار....

لكن المؤدون واحد في كل...

وأداء واقعي جدًا...

منطقي جدًا...

وصوفي جدًا.

لم يختلف كثيرًا مرور الدكتور ورفيقه على مكتب الاستجواب أمام رجال الأمن السياسي عندما كان هو فيه أو الدكتور... الألم واحد والحلم مخنوق

والسؤال واحد:

- أي آلية للخلاص من جحيم رحمته ضعف وغفرانه عمالة؟

وسريعًا تغير الديكور تمامًا ...

إنه منزل في أرقى شوارع العاصمة الخليجية ...

والأبواب تفتح لتمر السيارة الشديدة البياض والطول حاملة الدكتور ورفيقه إلى مدخل المنزل القصر ...

ومن المدخل الذي حوى لوحات تجريدية وأخرى للمنمنمات العربية والزخارف الإسلامية انتقلا سريعًا إلى مكتب رحب يكاد يجبرك على أن تحترم عزه بفخامة المحتوى وما حوى... تتوسط مكتبته لوحة زيتية عتيقة للمشهد الحسيني وحوله مريديه.

- هنا صرت أصيغ أفكاري... أعلبها لأعيد تصدير فكرة الثورة المتجددة...

وعلت ضحكات الدكتور ورفيقه حتى سقطا على أقرب أريكة

مكاشفة

وعلت ضحكاتهما مطلقة أصداءها في فراغ السلم الذي لا تطأه إلا أقدام بعض العمال الجدد والتائهين غالبًا ...

تعلقت بأعلى ذراعه يد الدكتور الذي أضطر لاستخدام يده الأخرى في السحب ليستطيع الوقوف بنما لا زالت نوبات الضحك لم تغادره... وأخيرًا سحب بدنه المحشور في ضيق السلم ووقف... ولأول مرة تلتقي عيناهما

- لم أكن لأجرؤ على الاعتراف أمامها فتحمل وزر يأسي... صدقني لديهم فرصة ليست لنا
- أرجوك لا تجمعني معك

قالها وهو يسحب يده من قبضة لم تمانع ... واستدار

- كلنا عشنا التجربة ... جربنا أول مرة ... في كل شيء ... التفكير .. البحث ... الإيمان والتنظيم والخلايا والأسر والاجتماعات المهددة والمظاهرات والجبهات والكفر

قاطعه بحسم

- أنا مؤمن ... ولا تزال هناك آمال لا مجرد أمل يا دكتور
- فكر كيف يمكن أن ترتاح
- في الموت راحتي ....
- .....
- ولم لم تقل هذا أمامها ...؟
- تعتبرني أستاذًا
- .....

لمعت عينه في مواجهة الدكتور الذي سرعان ما دافع عن نفسه

- بدك تحكي إني أنا معجب بها .... أو أنا وهي .... لألألأ ... هي مثل ابنتي

صعد بعيدًا عن الدكتور.

الدرجات صارت أرحب وأكثر إضاءة .... كانت سيارته في مواجهته .. محركها يعمل وكذا التكييف وقبل أن يغادر المرآب أطل بوجهه من شباك السيارة في مواجهة الدكتور الواقف على باب السرداب

- أنا لدي من أحبها يا دكتور
- وأنا لدي حديث لن ينقطع معك...

وقبل أن يغلق النافذة.... جاءه صوت الدكتور مختلطًا بصوت ياسين التهامي المنبعث من جهاز التسجيل بالسيارة

قد كفاني ماجرا لي من جفوني.... بك فارحم يا حبيبي آه جفوني

خالٍ من الشوائب

كان يعتلي النيل من منصة تطل عليه .

فوق كرسي في شرفة دائرية عيونها على منتصف النهر الذي تلمع في قطراته المتماسكة شمس قاهرية حارة .... وصاخبة .

الصخب حالة داخلية يفتقدها كثيرًا ، رغم أصوات عديدة مختلطة تأتي من مجموعة طاولات في نهاية الكافيتريا حيث ركن الشباب الذي لم يجلس فيه يومًا

شبابه رمقه بنظرة كهل يودع باكيه والحياة على فراش مستشفى استثماري... فندقي الخدمة .

❖❖❖

شبك يومًا أصابعه في أصابعها وقبل أن تتخلل أصابعهما ماء النيل الذي يحملهما والقارب قالت له :

- تعال نغسل تشابكنا بماء النيل... حتى نتلاقى خاليين من الشوائب

ضحك ضحكة طفل يدغدغه جده . وسحب يدها نحو النيل وهو يهمس في أذنها

- أبدًا لم تكن هناك شوائب

... وقبل أن يرسل لها برقية تهنئة بزفافها إلى غيره ... كان على ذات القارب يغسل يده عدة مرات بماء النيل وهو يزفر متأوهًا :

- الحياة لا تخلو من الشوائب

❖❖❖

قال له النادل بأسف وظيفي

- أنا في غاية الأسف يا أفندم... حضرتك أنا مضطر أقفل حسابي لأن الوردية انتهت

منحه البقشيش المناسب لأسفه المغلوب على أمره... وعاد من جديد ليواجه النيل.. نيلَهُ.

❖❖❖

كان صوت الولد المراكبي مساومًا يردد عبر التليفون:

- أنت كلك نظر يا باشا ودائمًا أبو الكرم... أنا أطلع معك لأسوان وليس فقط إلى آخر "جزيرة الذهب".

يومها أراد أن يحقق أمنيته مع فتاته التي بحث عنها عمره.. ولم تكن هي من تركته وتزوجت.. ولم تكن أيًّا ممن عرف.

في كل مرة كان يقول أنه وجدها من جديد...

أكثر نضرة... وانفتاحًا على الدنيا... وانغلاقًا عليه... وأكثر جنونًا!

جميعهن صحبهن إلى النيل..

آخرهن اختار أن يصحبها ليلاً ربما تكون الأخيرة... آملاً أن يجدها الأمل المنشود... الليل قد يكون فارقًا... والليل هو من دفع الولد المراكبي ليظن كل الظن...؟

في طريقهما إلى النيل... كان الليل خاليًا وخليلاً... والشوارع مغسولة ببعض مطر... والنوم سيطر على كل الوطن.

وكانت تخرج رأسها من شباك السيارة وهي تهتف

- واااااااو

وصوت حكيم وفرقته يدوي حول السيارة المسرعة

- واو واو واو... ع الصقفة... كله يرقص

❖❖❖

في القارب انهمك الولد بضمير مستيقظ تمامًا في لف سجائره منزويًا في المنطقة التي خلف الموتور

صوت فيروز يفرض الصمت على القارب وعلى النفوس

- أنا فزعانة تكون عن جد تنساني... ويمكن حبك جد بس أنا تعبانة

غابت هي في صمتها بعد أن جلست على طرف القارب

واستهدف هو أشباح المباني التي تتحرك خلف ظلمة وأشجار وراح يراقب تحركاتها .

وجد الولد المراكبي يميل على أذنه هامسًا

- أنا لففت لك سيجارتين... هي متمنعة عليك؟

كان يسمعه ويراه ولا يعرف له لغة... ابتسم الولد بخبث وتأييد وغمزه في ركبته قائلاً

- أشعلها يا باشا... وناولها... وستنولها .

لم يختلف الإيقاع بعد الدخان المشبوه .

احتاج فقط لأن يمد قدميه على الطاولة التي تتوسط القارب... بينما هي وقفت... ربما دعاه وقوفها للاقتراب... اقترب إلى جوارها... وزاد... تقدم نحو آخر مسافة للوقوف على القارب قبل الماء و... قبل السقوط... قال :

- كنت حمارًا .

- لم؟

قالتها دون أن تتحرك نحوه

- لأنني كنت أظن أن النيل يغسل الشوائب بالنهار فقط.

قالها دون أن يتراجع نحوها.

رغم الهواء البارد ...

والماء المحيط بكل مكان ...

والرحابة الخارجة عن ضيق روحه.

تسللت إلى أنفه رائحة حريق ما ... التفت

كانت خلفه... تعطيه ظهرها ... وتنظر نحو بيوت جزيرة الذهب البسيطة والهادئة والنائمة ... كان معطفها يحترق بهدوء مغافلاً كل ريح وماء.

❖❖❖

تمددا ضحكًا على طرف القارب... ضحكًا كثيرًا فيما كان الفتى مشغولاً في كوب يحرق فيه حشيشه ويضحك هازًّا رأسه وقائلاً بصوت ظن أنه وحده من يسمعه:

- مية مية ... السطل ينسي المراد ويزيد الوداد.

ضحكًا من جديد على القافية الفطرية في حديث الولد

طارت نحوه خصلات شعرها ... سحبتها باستدارة رأسها نحوه ورمته بنظره عين واسعة ومرهقة

- ما مرادك؟

سعى للهرب من نظراتها والسؤال بالوقوف ... حاصرته بتكراره وعيناها فردد

- مرادي مرادي مرادي ... لك حبي وفؤادي

اتسعت نظراتها وصارت أكثر إصرارًا ... صمت وتابع المصابيح البعيدة التي تتأرجح في نظراتها ... وضحك وهو يقول :

- لا أعرف ..... هاهاها ... لا أعرف مرادي

حين رسى القارب ابتلعته غرفة صنعتها له سفينتان راسيتان على ذات المرسى

نظر إليه الولد متعجبًا ...

- أنت لم تفعل شيء يا بيه؟ طيب لما مجيتك بالليل؟

اكتفى بابتسامة شكر كإجابة

سحبه الولد من يده ليقترب من أذنه ويهمس

- ممكن أترك لك المركب. اجلس معها كيفما شئت وأنا سأغطي لكم المركب وعيش يا بيه.

اتسعت ابتسامة الامتنان ... فتابع الولد

- لا أريدك أن تغادر وأنت غير سعيد

❖❖❖

وهو يوصلها إلى محطة الأوتوبيس بعد قرارها مغادرة القاهرة إلى غير رجعة. أخرج لها معطفها الذي احترق بفعل قطعة تبغ مشتعلة سكنته وغافلت الهواء والماء وصاحبته

قال لها :

- أرجوك اهتمي بـ...

قاطعته

- أنا أهتم لا تقلق... المهم أن تعرف أنت مرادك... أنا شخصيًا لم أجده ولكني أعرفه

بعد أن أدار السيارة عائدًا إلى وسط المدينة... وجد أمامه لافتة (يوجد بنزين ٩٢ خالٍ من الشوائب)

ودخل المحطة سريعًا محدثًا نفسه

- هناك شيء خالٍ من الشوائب

قال للعامل

- املأها تمامًا

ما أن بدأ العامل في سكب البنزين بمعدة السيارة حتى توقف

- ممتلئة يا بيه... فقط لتر واحد

منح العامل عشرة جنيهات... وابتسم قائلا

- واحد واحد ... المهم يكون خالي من الشوائب

❖❖❖

قبل أن تنهي الوردية في كافيتريا الدور العاشر بالمبنى العتيق لماسبيرو كان النادل يقول له

- تؤمر بأي شيء آخر لأننا في آخر وردية...

حول نظره عن النيل... باتجاه النادل وخلفه عند مدخل الكافيتريا كان ظلاً يغادر مدخلها على عجل... ظلاً يعرفه.. لمحه الظل حين دخل فقرر ألا يستمر

قال وهو يدفع الحساب على عجل

- لم أجد شيئًا خاليًا من الشوائب

رد النادل بمنتهى التلقائية

- مياه معدنية
- لا... ليست خالية تمامًا

قالها وخطواته تسير مستهدفة الظل الهارب

- تمت -

كعكة بالكرنمة في مساء "حيفا"

كان مساءً خالصًا من كل قمر أو هلال....

وكان الصيف يضرب بكل عنف أرجاء الغرفة المطلة على "حيفا" من فوق جبل "الكرمل".

وكانت نسمة جبلية ساحلية وحيدة تقاوم الحر المستبد...

وكانت شمعة وحيدة تحترق بعد أن اعتلت قمة الكعكة الغارقة في أردية من (الكريمة والشيكولاتة)...

وكانت الكعكة تتوسط ما بينها والشرفة...

تتوسط ما بينها وبين قبة المعبد البهائي القديم في لوحة إطارها الشرفة... وفي الخلفية مربعات طوبية القمة لبيوت الحي الألماني القديم ثم في المدى بحر يتشح بالسواد وأشباح أشرعة تداعب الهواء ويداعبها.

لم تكن يومًا تعرف سر عشق (فيحاء) للكعكة المتدثرة بـ (الكريمة والشيكولاتة)

نسمة هواء فارة من هجمة حرّ، هاجمت الشمعة.... اهتز اللهب... أصدر صوت فرقعات ضعيفة متتالية... حشرجة موت... وسكن اللهب وانطفأت الشمعة....

❖❖❖

بقيت الكريمة والشيكولاتة السائحة تلمعان في الظلام...

على صفحة الكعكة كان وجهها

(فيحاء) باسمة الثغر الدقيق...

قامت من كعكة ميلادها

حررت رابطة الشعر البني وهزت رأسها فانطلق شعرها المتحد خصلات... تمامًا مثلما كانت تفعل أثناء سيرهما على شاطئ حيفا في أول الليل

تسحب صاحبتها من يدها وتركض إلى البلد... إلى البحر... إلى الكوافير... إلى السوق... دوما تصنع على عجل...

لا تكاد صاحبتها تكمل ربط أزرار القميص.أو شبك رباط حذائها. حتى تقتحم (فيحاء) الغرفة عليها، بعد أن تمرق من باب شقة طابعة على خد أم الصديقة قبلة... ومثلها على خد الأب وهي تغمز بعينها للأم قائلةً

- إنها قبلة أبوية... ما فيكي تغاري

ثم تفتح باب الغرفة وتبحث سريعًا بعينيها اللوزتين عن صديقتها وحين تصل إليها تستهدف يدها اليمنى وتجذبها ولا تستسلم لأي نقاش

- ثواني فقط أعدل الـ....

تحمل حقيبة يد الصديقة وهاتفها المحمول ميدالية المفاتيح وترد أثناء ذلك

- مافي وقت
- أصل المكياج اللي...

تجرها خارج الغرفة...

- مافينا نتأخر أكتر.....باي باي تانت...باي باي عمو
- يا ماما سلام...هذي المجنونة...

وعادة ما تكون آخر الكلمات قبل أن ينغلق الباب وهما خارجة هو (مجنونة فيحاء) بينما الأم تبتسم... والأب يقلب نشرات محطات التليفزيون وهو يتمتم مغازلاً زوجة هدها السن والمرض غير أنهما لم ينالا من مكانتها في قلبه:

- فيحاء تذكرني بجنونك يا حبيبتي

وهما في الطريق تتذكر الصاحبة أنها نسيت أن ترتدي أحد زوجي القرط!
أو أن طرفًا من قميص لم يستقر في جوف البنطلون ...،
أو أن رباط حذائها متحررًا يسير حولها ...،
ساعتها بالطبع تنال (فيحاء) ما تستحق من مصطلحات اللوم والتبكيت... والتي تنتهي بهما في مداخل أحد البنايات يتممن ما انقطع بسبب استعجال (فيحاء). بينما ضحكاتهن تعلو على قدر حرج الموقف...

❖❖❖

في إحدى المرات التي قصدتا فيها أحد محال الحلويات، لم يحتاجا لأي مكان يتواريان فيه ليصلحا ما أفسده استعجال فيحاء الدائم فلقد اتسعت عينا (فيحاء) وهي تشاهد وجه صاحبة عمرها يحمل عينًا زرقاء والأخرى عسلية...
ضحكت حتى استندت على سور السلم الحديدي الذي يهبط بالسائر في نهاية شارع (المخلص) بحي النسناس القديم قدم عروبة حيفا وتاريخها ... كان الاستعجال هذه المرة قد أنتج وجهًا مستديرا وشعرا غجريًا وعينين لكل منهما لون... وتعالت ضحكاتهما وهما يخرجان من الحي القديم قاصدتان وسط البلد تحديدًا محل (الكونديتوريا) حيث (التورتات).. كل زبائن المحل غير الدائمين كانوا يطالعون الفتيتان وهما يديران نقاشًا حول أي واحدة من (التورتات) تغرق في الكريمة والشيكولاتة.
تقف فيحاء عند إحداهن... لا يهم أن تكون الأكثر غرقًا... المهم أنها تقف عندها... تتسمر... وتشير إلى واحدة

- هذه قالت لي أنا أناديكم.... أنااااديكم.

وتعلو الضحكات الرائقة.... بينما شاب ينظر - وشفتاه تَتَّحِدان في قرف- إلى خطيبته التي تشير لواحدة من أكبر (التورتات) حجمًا استعدادًا لإهدائها لحماته.

❖❖❖

أرادات (فيحاء) بعد أن خرجت من الـ (كعكة) في تلك الليلة أن تتخلى عن صخبها ..
سحبت صاحبتها من يدها اليمنى... نحو دولاب الملابس... أخرجت القميص الأبيض المغطى بياضه بشبكة من الخطوط الحمراء... السميكة طولاً والنحيفة عرضًا... كانت قد أحضرته لصاحبتها في يوم مولدها وقالت (فيحاء) حينها :

- إنه يشبهنا ... نتقاطع على صفحة الحياة وأنت بدينة وأنا نحيفة

بالطبع حظيت (فيحاء) بقرصة في إبطها بسبب تعليقها على وزن صاحبتها الزائد
ألبستها القميص مع البنطلون الجينز الأسود... وحركت يدها على شعرها فترتبت غجريته
لم يعبرا الباب... ولم تطبع قبلة على الأب والأم... ولم تحصل على صفة (مجنونة) وهي تغلق الباب خلفهما ...
فقط صارا في الشارع
الأحجار التي تفرش الشارع تتراقص مع إيقاع أقدامهما ...

- اشتقت لشوارع حيفا
- .....

كانت (فيحاء) تسمي (حيفا) مهد الدنيا ...

- حيفا (مهد الدنيا) والله والآخرة كمان .... هي الأرض المباركة
- .....

❖❖❖

في معرض للصور القديمة كان اللقاء الأول لـ فيحاء بصاحبتها قبل سنوات...

الصاحبة تقف تمثالاً أمام صورة لمحطة قطارات حيفا التي رحلت بسبب آلة الغدر سداسية النجمة...

وتسللت (فيحاء) لتقف أمام الصورة ذاتها.. حيث تروي عيناها من ظمأ رؤية قديم لذكرى حق حميم

ضمت الصورة (قضبان عدة... ومشهدًا لرصيف المحطة وعليه تقف عربات عتيقة... والناس تجلس وتقف متناثرة تحت مظلة خشبية، تخرج من خصر مبنى، تصنع مدرجات سقفه بحمرتها امتدادًا رائعًا للصورة وعمقًا للحق المسلوب فيها)

كانت دموع الصاحبة تتقاطر

وكانت دموع (فيحاء) تنفجر على غير تمنع

وكلاهما أخرجت مناديلها في نفس الوقت....

وكلاهما مدت يدها للأخرى بمنديل....

خرجتا تجففان دموعًا لخصت (فيحاء) فيها المنبع:

- كلما لمستِ بيديك تاريخك العفيف صار إحساسك بمرارة الاغتصاب أبشع

ودَمِعَا ساعتَها كثيرًا...

وبحجم المرار تأوهتا وهما تهتفان (آه يا حيفا .... آه يا قدس... آه يا فلسطين يا وطن... آه يا إنسان).

ثم سارا على شاطئ حيفا وصحبهما كثيرًا ليلتها صوت محمود درويش وأداء مارسيل خليفة... كانت لها طعم درويش في الإلقاء...

وكان لـ (فيحاء) نكهة مارسيل في الغناء وشجن خاص... خاصة وهي تغني (حيفا من هنا بدأت).

❖❖❖

أرادات (فيحاء) بعد أن خرجت من الـ (كعكة) وصحبتها للبلد أن تمر معها على كل مساجد حيفا وكنائسها والشوارع المهدومة

أرادت أن تسير بكل الأزقة التي تتعانق فيها أطلال بيوت أصحاب الحق الباسمين مع أضواء شمس الحرية القادمة...فتتقوى البيوت وتتأهب الشمس

أرادت أن تسير في السوق المغسول دومًا برائحة بحر حيفا...

تقلب البندورة والفلفل الملون وتدعك الأحمر منه في خدها طالبةً منه نضارته...

وتداعب عم فواز صاحب الخضروات المختلطة الأعمار من ميلاد القطف... تهتف:

- عم فواز... خضرواتك طازجة وبدون ضمان

أرادت أن تتجول في الحي العباسي حيث نشأت... تركض حول مقام عباس البهائي... وتحديدًا قبالة بابه تقف... حيث كان يقف لأول مرة... (عمر)... كان متوسط الطول له شارب منمق وإن كان غير كث ويرتدي حلة كاملة ورباط عنق وعرقه يتصبب وينظر متسائلاً عبر عينين لا تحجبهما نظارته الطبية الرقيقة... يسألها عن المقام وتاريخه....

كان مرتبك العرق وهو يسأل وأكثر ارتباكًا وهو يسمع الإجابة لكنه دومًا مبتسم ابتسامة المنبهر

كان جاهدًا يمثل الانبهار بالإجابة كما اتفق مع صاحبتها

فلم تكن المرأة الأولى التي يراها فيها ... التقاها لأول مرة خارجة من الشركة التي تعمل بها صديقتها ... سألها بتهذب شديد عنها وطلب تدبير موعد .

وغفرت لصاحبتها المؤامرة ...

بل لم ترها يومًا كذلك...

تزوجا بعد شهر في السر وكان الاتفاق :

- سأعمل على ألا أغادر حيفا دونك مادمت حيًّا
- سأكون معك حتى آخر العمر .

وكان العهد دون تفكير ... واشترطت ألا تعلم صاحبتها بأمر الزواج...

لكنهما تزوجا دون أي تردد ودون أية حسابات

لم يفكر هو في علاقة قلبه بعمله أو مدى صلاحية أن يرتبط عضو البعثة الدبلوماسية المصرية بفتاة من حيفا ...

لم تفكر هي في أن الفراق لا محالة مكتوب لأنها ببساطة لا تستطيع أن تعيش بعيدة عن حيث استشهد أبوها

لم يفكر هو في حسابات العائلة والأم التي تعرض بنات كبار البلد ... قريتهم

ولم تفكر هي في جدها الذي لن يقبل....حتى لا تضعف أمام حبها وترحل معه.

كان يريدها زوجة

وكانت تريده زوجًا وأبًا ... وبأقصى سرعة

❖❖❖

أرادات (فيحاء) بعد أن خرجت من الـ (تورتة) وصحبتها للبلد وللمساجد والكنائس والسوق ومقام عباس حيث التقت عمر

أرادت (فيحاء) أن تزور كل مكان زارته معه في أيام العسل التي امتدت عمرًا ... عمر زواجهما السري.... وعمرها؟

فصحبتها وجالت في كهوف جبل الكرمل

كانت تشرح له التاريخ

- من الكهوف يقال أخذ أجدادنا الحجارة لبناء الميناء والبيوت.
- في كهفك أحيا أبني روحي وموانيً وكل قلاعي

تحاول الاستمرار ولون وردي يسرح في خديها فتقول بسرعة (بحبك) وتتابع بجدية

- لكن تعرف إن العرب الكنعانيين هُم أوّل مَن سَكَن حيفا وديارها وبنوا وعمَّروا الكثير من مُدُنها وقراها.
- أعرف أنك أول من سكنتِني وعمَّرتِ حياتي

جالت مع صاحبتها في كل مكان زارته مع عمر

حتى عند مراكب الصيد القديمة يوم أن قابلتها هناك

كانت ابتسامتها شاحبة... سعادتها بلون وجهها الذي كان مشرقًا ... لكن صفرة غريبة تسري في الوجه... وقالت (فيحاء) لصاحبتها

- باركي لي... أنا حامل

انعقد حاجباها ... اضطرت للاقتراب من (فيحاء) متسائلة

- فيحاء... خير؟
- أنا حامل

زادت عقدة الحاجب حتى صارت كل ذرات الهواء عقد ...و بدأت (فيحاء) القص...

- تزوجت عمر وفي السر والآن حامل في الشهر الخامس....

وفي هذه المرة لم تتبادلا مناديل الورق... لقد باحت (فيحاء)... وارتاحت على رمل الشاطئ... الجسد الواقف أعياه حمل حبه وأمله وجنين حلم... فسقط بعد أن باحت لرفيقتها بما أخفته عن الشريك حتى يفوت ميعاد الإجهاض...

- باحت وسقطت مغشيًا عليها

هذا ما قالته الصديقة لـ عمر حين قدم إليهما على الشاطئ بعد أن اتصلت به....

❖❖❖

أرادات (فيحاء) بعد أن خرجت من الـ (تورتة) وصحبتها للبلد وللمساجد والكنائس والسوق ومقام عباس حيث التقت عمر والميناء القديم حيث باحت... أرادت أن تعود إلى التورتة من جديد وتسكن... وسكنت

وعاد ضوء الشمعة يتراقص

إنه عيد ميلاد (فيحاء)

أول عيد ميلاد بعد الرحيل....

رحيل اختياري كان محتومًا ... واستعجلته

قال لها يوما الطبيب الإنجليزي الممصوص الجسد والمكتنز الأنف والحواجب

- القلب لا يتحمل نتائج الحب

ضحكت وهي تقول لصاحبتها بعد أن غادرتا المستشفى

- هذا الرجل الانجليزي يشبه أشرار الكارتون ...

ردت عليها الصاحبة بابتسامة... ومحاولة للهرب من مواجهة الواقع موجوع القلب بالمزاح

- لأن العرسان يأتوننا في اليوم مع الصلوات الخمس ونحنا اللي على نغمة واحدة

وتراجعت خطوتين للخلف لتقلد سناء يونس في مسرحية (سك على بناتك) وقالت

- وإحنا على نغمة واحده ما أخدوش يا بابا ... ما أخدوش يا بابا

ورغم قطرات على وجه (فيحاء) اختلط فيها ما هو مصدره العين مع ما هو هاطل من الأنف... إلا أنها قالت ضاحكة لتكمل الإفيه المسرحي لفؤاد المهندس

- على يدي

وأصرت على أن يبقى الجنين ...

- الدكتور الانجليزي يريد أن يحرمني من ولد يشهد (حيفا) تعود ... ولد لأرضي وميراث جدي يرث فيها بعد أن تعود ... والله ليكون الولد ... ويكون له الحق... يأخذ حق أمه... هو أو أحفاده أو أحفادهم .... بس يكون

وأصرت على أن يبقى الجنين

وأصر عمر على أن يترك (عمر) الصغير للصاحبة...

- لقد ضحت بحياتها ليكون... وأنا سأضحي بأبوتي وأكتفي بها كلما سنحت الظروف ليكون (عمر) كما أرادت (فيحاء)

وفي آخر وداع لـ (عمر) الصغير من الكبير الذي نُقِل للعمل في دولة أخرى قال لصاحبة فيحاء

- كلما زرتي قبرها أقرئيها مني السلام... وسأحاول أن أزورها.... أما عمر فقولي له إن أباه ينتظر العودة إليه... ولم يتخلَ عنه يومًا.

❖❖❖

ارتفع صوت بكاء عمر الصغير الذي استيقظ لتوه... استدارت نحوه صاحبة أمه... حملته بين كفيها... ضمته إلى صدرها

- أخيرًا استيقظت... لم أشأ أن أطفئ شمعة عيد ميلاد ماما وأنت نائم

كان وجهه المستدير منسوبًا لأمه... وكانت بشرته خمرية لأبيه... وكان لعينيه اللوزتين ذات اللمعة التي كانت تميز عينا عمر الكبير وزوجته (فيحاء)

ابتسمت... ضحك الصغير... اقتربت بوجهه من الكعكة... وراحت تغني

- سنة حلوة يا فيحاء سنة حلوة يا عمر سنة حلوة يا جميل

واستجمعت كل هواء حيفا في رئتيها ونفخت في الشمعة... أطفأتها

نظرت ناحية البحر وضحكت

- أحضرتها لك كما تحبين... غارقة في الكريمة والشيكولاتة

وعلت ضحكاتها مع ضحكات عمر وصوت فيحاء يملأ الغرفة

- هذه قالت لي أنا أناديكم.... أناااااديكم.

ومن جديد أنارت الشمعة.

- تمت -

دخان الفجري*

يركض الغجري في البريّة...

وخلفه أهل البلدة كلهم يحملون مشاعلهم...

استغل لون بشرته المنحوتة من قاع النيل وتخفّى خلف لا ضوء لقمر وبين لا ظلال لأشجار... ترك نفسه متكورًا بين زراعات الذرة... مبتلعًا برغبة في الحياة داخل رحم الخضرة...

يسمع وقع الأقدام الثقيلة لخفراء العمدة تتحرك على نواصي الحقل المغلّف برداء ليل غادره قمره والنجوم...

ويسمع دقات قلبه المتصاعدة بفعل الإدرينالين... والأمل الذي يقاوم وقع الأقدام الثقيلة إنها ذات اللعبة القديمة والدائمة... تتكرر

مطلوب منه أن يحمل في سيارات فرقته المسرحية كامل عدة البهجة... الملابس والديكورات والمكياج والنص والفنيين وبالطبع الممثلين والممثلات...

مفروض عليه أن يكون العرض كامل الحبكة شديد الإحكام فالكبير سيحضره... وبالطبع ((هذا شرف لا يوازيه شرف))

هكذا أكد مدير عام الثقافة في الإقليم... ولم ينس أن يضيف هامسًا في أذن الغجري المخرج وهو يودع سيارات الفرقة المسرحية...

((وهو كذلك يقدر الفن وأهله... ولا تنسنا))!

مبنى المسرح واجهته فرعونية... بهوه روماني... أعمدته تنتمي لعصر العمارة العثمانية... وعلى الجدران منمنمات عربية ولوحات قبطية...

للمسرح أبواب عدة استحدثها (الكبير) للحفاظ عليه... الأبواب حديدية... وحراس أرضعهم (الكبير) حديدًا مصهورًا

الجمهور كبير... يتحركون في مجموعات ولكل مجموعة قائد ربما هو من عائلة حرس الأبواب أو على الأقل تربطه بهم علاقة نسب...

الجمهور صامت وعيونه مصوبة نحو قائد كل مجموعة... باعة (الفشار) قبل العرض يدخلون يتوزعون صفوفًا... يضعون بيد كل مشاهد علبة فيشار متجلد ويتسلمون النقود ولا مجال للاختيار.

حين طلب أحد الصغار عصيرًا بدل (الفشار) سارعت يدا أبيه لتطوق فمه وعلت وجهة ابتسامة شاحبة وهو يواجه بائع (الفشار) وبطرف عينه يتابع قفا قائد المجموعة الجالس أمامه بصفين

- عيّل ولا يعرف مصلحته

كل كراسي القاعة مصفوفة وممتلئة... فقط أول صف خالٍ تمامًا من الكراسي ومن الجمهور... فقط كرسي واحد ليس من جنس كراسي القاعة... كرسي عرش متحرك... إنه لـ (الكبير)

يبدأ العرض...

حواء الرمز تجسد دورها...

وذكورية خشبة المسرح حلبة مصارعة لديوك يحمل كل منهم عُرفه داخل عقله لا فوق رأسه

حواء جميلة...

الحلبة تستعر صراعًا ...

و... الكبير مد أمانيه سلمًا عَبَرَ به قاعة النظارة إلى الخشبة إلى الحلبة إلى حواء... وتملل في جلسته فوق الكرسي ومد يده نحو مركز جلبابه والجسد ... وراح يفرك حرًا يداهم برودة فحولته التي لا تشرق شمسها في الحلال؟

الغجري المخرج... خلف الكواليس يصدر توجيهاته...

- إضاءة ساقطة على حواء

كل الديوك تتحفز

والكبير منتصب الظهر يتحفز

- إيقاع الحرب الآن

كل الديوك تتعارك

والكبير يأتيه خبر الإجهاز على مكتبة الأستاذ (نون) التي أفسدت شباب البلد

- افرش المسرح أحمر

كل الديوك سقطت

والكبير رغم المشهد الدامي سعيد لم يبقَ ولا ديك

- الإنسان يستعد
- تحركي حواء... اكسري الحائط الرابع
- ظلام

حواء هبطت خشبة المسرح...

حواء وصلت الصالة...

حواء وعمود ضوء ساقط يلاحقها

حواء وفستان حزين... ممزق... الألم أسود... ودماء الديوك قانية... وبدن بض يميز بياضه سواد الألم وحمرة الدم المتصارع

حواء تواري ما تكشف من أثر الصراع...

نهد عفى الانتصاب... وبطن ينتظر رحمه الإنسان القادم

تصرخ:

- أنا الحرة التي سيرويها نهر الإنسان ليكون الزرع

الكبير يركز في ما تيسر من النهد

الغجري المخرج يغمض عينيه وينتقل إلى الإقامة في عقل حواء

- أنا الحرة التي ستستسلم لفارس لم يسقط من على فرسه حتى لو كان مترجلاً

الكبير يسافر في أخدود بين النهدين

الغجري المخرج يضغط أحبال حواء الصوتية ليكون صوتها من عمق أحشائها

- أنا الحرة التي سترضع أثداءها صبحًا قادمًا

الكبير يتمنى لو كشفت له النهدين

الغجري المخرج يسحب حواء من رأسها لتشمخ...

- أنا الحرة تعال يا إنسان... الصبح تأخر... تعال يا إنسان الليل طال

الكبير يقوم...

الغجري يشير للإنسان الرابض في القاعة ليستعد

الإنسان يقوم...

حواء تصرخ.... الكبير يضمها ....

الغجري المخرج اقتحم الخشبة....

الإنسان الممثل تسمر في مكانه....

حواء في أحضان الكبير تحاول الهرب...

قادة مجموعات الجمهور يصفقون... ويصفق الجمهور... وتصرخ حواء ويصفق الجمهور

الإنسان الممثل في القاعة تسمر في مكانه، وعيناه صوب الغجري المخرج، والتساؤل الذي يطرق باب استمرار العرض

- ماذا أفعل يا أستاذ؟

توسط الغجري المخرج خشبة المسرح... رأس حربة ومن خلفها قاعدة تمتد من عمق الخشبة تراص فيها كل الفرقة خلف قائدهم

- هذه هي النهاية... عرض رائع يا فنانين

يقولها الكبير بينما يداه تضمان جسد حواء البض الصغير إلى صدره الممتد خرابة نتنة الرائحة

بصوت هادئ يقول الغجري

- نهاية وضعتها أنت يا كبير لم تكن متوقعة
- أحب البدايات غير المتوقعة
- تقصد النهايات

- لا أقصد البدايات... فهذه هي بداية ليلتي

وعلا صوت ضحكاته... وجسد حواء يحاول عبثًا المقاومة... والقاعة غادرها الجمهور كل الجمهور...

اتسعت عينا الغجري... بان بياضهما السابح في سمرة وجهه... مسح بيده فمه فلمس الحسنة السوداء الكبيرة على جانبه... و بقي ممسكًا شفتيه لثوانٍ...، ثم صعد بيده على رأسه الأصلع وابتسم.

- أنت طبعًا ترى أنني أصلع... ومن السهل أن تميز أن رأسي خالٍ من القرون... وهي في الوقت ذاته غير قابلة للزرع... رأسي أرض جرداء لا تنبت إلا أعمدة من أفكار

وإلى عيني الكبير نظر الغجري المخرج... وصرخ

- اتركها.... الآن... فورًا... لن نتحرك بدونها... حواء جاءت معنا ولن تغادرنا

جلس الكبير محتضنًا صيده... وابتسم

- من قال أنكم ستتحركون؟ أنتم متهمون؟ ومدانون؟ والأدلة قائمة؟ قل يا شيخ البلد جرائم الأستاذ وفرقته

يشد شيخ البلد طرف عباءته المتدلي من على كتفه الأيسر... ويبتلع لعابًا زاد بسبب فص الأفيون المتواري تحت لسانه... ويخرج ورقة...

- لقد أثبتت التحريات أن هناك ست علاقات مشبوهة وشاذة بين أعضاء الفرقة... وأن ثلاثة من الذكور فيها قد ارتضوا أن يتحولوا إلى إناث والدليل أن شعورهم طويلة جدًّا لدرجة أن اثنين منهم يعقدان شعريهما كذيل الحصان... إضافة إلى عدة زجاجات جعة ١٢ ٪ وقبلات غير مشروعة بين الرجال والنساء وبعض كتب لموليير وتروتسكي والأدهى أن هناك شبهة في أن الفرقة تبشر بدين جديد حيث وجدنا كتابًا مجهول المصدر معنون بـ (النبي) و...

ويقاطعه الكبير...

- هذا يكفي... شذوذ وقبلات وإلحاد وإدعاء النبوة

ودون أن ينقل بصره إلى أحد صرخ

- الحكم يا مولانا...

جاء صوت خاشع من ركن مظلم في القاعة

- إن للشذوذ عقابه... وللإلحاد عقابه... ولادعاء النبوة عقابه... وأرى أن يُرموا من حالق أي جبل شاهق أو يرمى عليهم حجر كبير... أو يُحَرَّقوا... أو...

قاطعه الكبير

_ إذن فليكن الأسهل... يُحَرَّقوا

قالها

ونبتت في حوائط خشبة المسرح الأربع أعمدة نيران ... تعالت مع تعالي ضحكات الكبير وهو يجر خلفه حواء من شعرها خارجًا من المسرح وخلفه حرسه

كانت صرخات الفرقة التي تحترق ... مختلطة ... ملتاعة ... بريئة ومغدورة

ظل الغجري في مكانه ... لم يصرخ ... لم يتحرك ... وجدوا هيكله واقفًا ... بدا أطول قامة بكثير ... شك المحققون في أنه للغجري ...

حواء هربت من غرفة حبسها فيها الكبير ... هربت رغم أن الغرفة كانت بلا نوافذ ...

قال أحد الخفراء

- شاهدتها تخرج من الجدار ومعها الغجري

بحث عنها الكبير في كل مكان ...

لم ينلها رغم كل التوسلات ...

أرسل عيونه تتأكد من موت الغجري ...

وتأكدت كل العيون

الكبير لم يكن مقتنعًا أبدًا بموته ...

كان يلمحه في الليل ويخرج خلفه يطارده إلى حقول الذرة والقطن وحتى خلف شواهد القبور وبين أشواك صبارها

حين يتأكد من أنه يحاصره يأمر بإشعال النار في المكان كله ...

ويحرق ...

ويذهب ليعود ويحرق ...

ثم يهدأ ليفكر ويفكر ويحرق ...

وفي كل مرة يعود إلى قصره بعد نوبات الحرق التي صارت سمة حياة... يسمع ضحكات الغجري ويشم دخانًا شمه متصاعدًا من هيكله العظمي ساعة أمر بإحراقه.

❖ إلى روح صديقي الشهيد الدكتور (صالح سعد) الغجري المبدع أحد ضحايا محرقة مسرح بني سويف

القاهرة ٥ سبتمبر ٢٠١١م

عدسة الخرساء

رادار فريد يتحرك... منصته محمولة على وجه طويل تتوسطه غمازتان على الجانبين تتبادلان الحركة على خد ممتلئ خالي من المساحيق على حمرته.

رادار مفرود ... شبكة عسلية دائرية سابحة في بحر عين أبيض رائق... رغم أنه غير متسع إلا أنك تستطيع أن تلتقطه فور أن يبدأ الحركة...

قاعة المؤتمرات بالطابق الرابع في نقابة الصحفيين...

فخمة... لكن تبقى أزمة المصاعد في المبنى العتيق عيب خلقي من لحظة الميلاد ... كثيرًا ما سأل نفسه عن السر في كون إدارة هذا المبنى لا تعوّل إلا على مصعد واحد من اثنين في كل جهة...

حين عبر البهو الكبير الذي يلقى بضوء أزرق بفعل الواجهة الزجاجية... كانت الجموع تعبر معه في صخب شديد... بينما الأضواء القادمة من بقايا شمس تلملم أشياءها لترحل تبعث إحساسًا بالحميمية... لا ينقصه إلا زهرة وفنجاني قهوة وحبيبة...

موظفي الاستقبال يردون على جميع الأسئلة بـ إجابة واحدة قرروا أن يعتمدوها عملاً بمبدأ (ترييح الدماغ)...

- الدور الرابع المؤتمر وكل حاجة

إنها الإجابة المثالية على جمهور متعدد الألوان والأيدلوجيات والملابس وغريب عن المكان يسأل في عجلة

- هوا المؤتمر...؟
- المسجد من فضلك...؟
- المرحاض..؟

- التواليت...؟
- الكافيتريا ...؟

كل الأسئلة يقوم الموظف ببترها فورًا ... القاعدة (أنت تسأل إذن أنت غريب.. إذن أنت ضيف مؤتمر المعارضة)

عبَرَ كل هذه الحشود ... وطاف في الضوء الحميم... وصافح أمام المصعد نجومًا في عالم السياسة متعددي الاتجاهات شمالاَ وجنوبًا ووسطًا وجميعهم ينتظر المصعد والأنصار يفسحون الطريق للأستاذ أو الدكتور أو الشاعر أو سعادة السفير أو فضيلة الشيخ ومن قبله نيافة الأسقف...

اتخذ قراره بصعود السلم فورًا ... ارتقى سلمًا باهتًا ومقفرًا مارًا ببعض الواقفين يختلسون حديثًا مريبًا عبر الهاتف مع جهات عدة ترقب الحدث...وصلت إلى أذنه في رحلة الصعود :

- أيوه... ياباشا بقول لحضرتك العدد كبير و...

قالها الصحفي الأصلع غائر العينين وبارز الكرش حديثًا

- ح أديله الورقة بتاعت جنابك وهوا ع المنصة حاضر و...

تقولها الصحفية التي دومًا ما تتواجد في مظاهرات وفعاليات كل التوجهات

ووصله أيضًا صوت ناعس يطلب بحنان ولهفة

- طيب ما تجيبي بوسة تصبيرة لحد ما تيجي بالليل

يقولها مصور الوكالة وهو يرمي له ابتسامة وقبلة وغمزة بالعين

ويصل الطابق الرابع ...

حين اعتلى المنصة كان الأصغر ... وكان يحتفي بكل ضيف من السادة كبار السن والنضال يسلم عليه ويفسح له كرسيه حتى صار في الطرف الذي يقع في أول ثلث المسرح ... عن يمينه يجلس كل المتحدثين. وإلى يساره مساحة سير إلى منصة الكلمات ...

الأعداد كبيرة فالإخوان يشاركون بقوة ومثلهم الغد وحركة كفاية والاشتراكيون الثوريون وحركات شبابية جديدة ... والقاعة تفرشها فوق رؤوس الحضور لافتات صغيرة متنوعة وصور لوجوه غيبتها السجون (أيمن نور - خيرت الشاطر - مجدي حسين) ...

في الجزء الفاصل بين الجمهور والمسرح كاميرات كثيرة ... حركة دءوبة لمصوري الفوتوغرافيا ودقائق انتظار يطاردها في ساعته كل ثانية ... وبدأ المؤتمر ... وبدأ الرادار في العمل

دخلت القاعة من الباب ووقفت في المنتصف خلفه تمامًا وأطلقت عيناها ...

حذاء رياضي عليه تقف ... وبنطلون جينز وقميص أسود مزروع بورود قرنفلية ... ويد تهرب من كم القميص بعد أن أحكمت قبضتها على الكاميرا المرمية خلف ظهرها

كان يركز إلى كلمة الافتتاح ... قبل أن يستدير فجأة ليجدها هناك في منتصف المدى المكتظ ... ربما لأنها طويلة رآها ... ربما لأن عيناها لا تهدآن رآها ...

بدأت تتحرك ... وهو لا يغادرها ... حين انعطفت إلى يسارها في مواجهة المنصة ... كانت كل الكاميرات تجري لتسجل كلمة المعارض الكبير!

استطاع أن يلحظ أنها تحمل كاميرا تصوير تليفزيوني ...

- إنها لا تصور الكلمات؟؟؟

صوته يحدثه مستفهمًا ... وعقله راح يبحث في الوجوه المحشودة أمامه عن الذي تبحث عنه برادارها لتلتقطه..

وبكثير من الود المصنوع لمواقف المنصات الجماهيرية كانت كلمة المعارض الكبير ... حيًّا كل الحضور ورموزهم، وتمنى السير على دربهم، وأثبت أن له جذورًا تاريخية مع الجميع فهو بدأ إخوانيًا وأصبح ناصريًا وتحول إلى قومي وله خال يساري وعديل ليبرالي وجار عزيز قبطي.

وبسبب عدد الحضور وكثافة التنفس.. أخذت درجة الحرارة في الارتفاع ... فأصبح على المعارض الكبير أن يُخْرِج كل حين منديله الذي يحمل خط رابطة العنق الأحمر الرفيع وليجفف به عرقه ويعتذر للضيوف

- عفوًا

و ... يتابع الحديث عن بطش النظام!

هي ورادار عينيها لم يملا.. تسير الآن بين الجمهور والمسرح ... الكاميرا خلف الكتف ... لاحظت أنه يتابعها ...

تحركت ذهابًا وإيابًا ... ثم أخذت تكرر الحركة وفي كل مرة تمنحه نظرة ... وجملة عين

- خليك في حالك

في ثالث نصيحة موجهة ... ابتسم وهو يحرك شفتيه

- هذا هو حالي.

كبار الضيوف يتبادلون الحركة تجاه منصة الحديث وميكروفونات المحطات الفضائية ...

كل الأصوات فخمة ... واثقة ... ومُعارضة بشدة ...

تصفيق القاعة موجات تندفع حسب حجم فصيل المتحدث ... وكذا هتافها الذي لم يتوحد

- حرس حرس حرس ليه ... إحنا في سجن ولا إيه

القاعة تردد

- عايزين نحرر مصر ... م اللي ساجننها ... واللي سارقينها ... واللي بايعينها

الكل بحماس يهتف

- الله أكبر ولله الحمد

عدد كبير بإخلاص يهتف

- عاش جهاد الشعب المصري

القاعة تهدر

- يسقط يسقط حسني مبارك

عدد غير قليل يردد .... ومثله يرتبك ... وآخرون يصمتون

وهي تتحرك برادار إلى حيث لا هدف معلوم ... بالنسبة له على الأقل

وبدأت حركة التوصيات الخارجة عن المؤتمر في التقاطر

وهي تتحرك

قالت المنصة

- نسعى للجنة وطنية تنسيقية

لم تعد تغلق عينيها كلما منحته نظرة

- مطلوب من كل القوى الوطنية المصرية تجاوز خلافات الماضي التاريخية والحديثة خاصة تلك التي نتجت عن المنافسات الانتخابية في برلمان ٢٠٠٥م

بدأت التفتيش في جيب بنطلونها عن شيء...

تابعها وهو يقول لنفسه (ستبدأ التصوير)

سحبت اليد من الجيب... بين أصابعها الطويلة حبة نعناع... سرعان ما سكنت فمها... وقالت له عيناها وحاجباها يرتفعان في أسف

- كانت آخر حبة

وتواصلت التوصيات

- إن القوى الوطنية والسياسية والحزبية والنقابية تسعى لمواجهة التعديلات الدستورية المعيبة عبر تكوين جبهة وطنية وليس مجرد لجنة تنسيقية!

والدقائق تمر... تجاوزت الآن الدقيقة المائة... وتقرر أن تمنحه المنصة الكلمة... بينما كان كثير من الضيوف المعارضين الكبار يصورون خارج القاعة مع مراسلي القنوات الفضائية.

تحمله خطوات سريعة نحو الميكروفون

تحركت هي ورادارها معه نحو الميكروفون

هو على المسرح

هي على الأرض

وصل إلى المنصة واستقر أمام الميكروفون

وصلت إلى أمام المنصة وصعدت إليه...

تناوله بأصابعها الطويلة الخالية من أي زينة إلا خاتم فضي عليه مفتاح الحياة... وريقة، و.. تنزل سريعًا.

حين استدارت كانت الكاميرا لا تزال نائمة على ظهرها... بينما خصلة شعر بني مشرب بصفرة تتسلل من تحت وشاح أزرق...

تقرأ عيناه في الورقة (أنا خرساء... لكني لست صماء)

يوجه عينيه ناحية المنصة الخالية إلا من مقررها الباسم دومًا... وإلى القاعة...

الجمهور يتململ في المقاعد... تتحرك الأيدي بإيقاع واحد لإحداث تهوية شخصية، مستخدمة أوراقًا وبيانات تحمل توقيعات لأحزاب وحركات عدة

هي في مواجهته... أيقظت كاميرتها... فانتفضت لتواجه غايتها بنشاط بالغ

إنها الكاميرا الوحيدة أمامه

تطلق شفتاه فجأة ضحكة تصمت معها القاعة

وتعلو وجهه ابتسامة شاحبة... تتبدد سريعًا

- طبعًا زهقتم... طال الجلوس... سئمتم الحديث والكلمات... لكن خلونا نسأل نفسنا بجد...

تضغط على زر الزوم بالكاميرا ليملأ وجهه الكادر

- كم مرة سمعنا نفس الكلام؟ كم مأساة نعيناها بخطبنا هنا وغير هنا؟ كم مرة وكم مرات هتفنا داخل المسارح والقاعات؟ كم مرة كان الغضب لكرامتنا المسحولة وقوانيننا المعطلة... يكتفي بصيحات غضب وبيانات؟

توقفت الأيادي عن التهوية بالأوراق والبيانات

وبدأت خطوط العرق ترسم طرقًا على الوجوه

وتحركت هي إلى زاوية ترصد مشهد الصمت المتبادل بين منصة الحديث والجمهور...

- نحن ننسى أننا نتحرك داخل القفص... ونضيع كل الوقت بالبقاء داخله... بالنضال داخله... نحن نغني ونرد على نفسنا... نرفض معًا... ونهتف أحيانا معًا... ونثور داخليًا... يعني نحن نرفض رفضًا معلبًا

وجَّه نظره تجاهها وتلاقت عينه بعينها داخل عدسة الكاميرا ثم التفت للقاعة

- سيتهمنا التاريخ بأننا عشنا (خرس) ورضينا بوهم العاهة... واستسلمنا لمرض الصمت المحتوم... لو رضيتم بهذه التهمة... فسأرفضها وحدي... لن أموت وأنا أخرس سأخرج من القاعة سأهرب من العلبة ومن الخَرَس... إلى الشارع فيه ناس كتير مش عايزة تموت خرس

تحرك سريعا... وقفز إلى القاعة...

قامت كل القاعة... على صوت هتافه تردد من خلفه

(ساكتين ساكتين ساكتين ليه... أنتو خرس ولا إيه)

وعلى السلم المهمل للنقابة نزل... قاصدًا الشارع... والناس

وهي تسجل بعدستها ...

بينما وقف ضيوف المنصة يعلنون أمام القاعة أنهم لم يتفقوا على أن يعقب المؤتمر وقفة احتجاجية!

حين وقف أمام النقابة... كانت تضع في يده شيئًا صغيرًا وتشير إليه ليضعها في فمه

إنها القطعة الباقية من آخر حبة نعناع كانت في جيبها ...

- تمت-

ذات مساء

ودَّعَتْ خطواتي آخر بقعة من بساط كوبري عباس المفرود على نهاية الجيزة وحتى بداية منيل الروضة، وانعطفت بي الخطوات إلى اليمين ليستقبلني ما تركه عبد العزيز آل سعود من شارعه لمنيل الروضة وصولاً لمقياس النيل...

اكتشفت الشارع الهادئ بعد أن تقطعت بي سبل الجلوس بالقرب من النيل حين أُغْلق أسفل كوبري قصر النيل على حديقة بتذاكر يقصدها العشاق ليختلسوا هناك بعضًا من قبلات مدفوعة الأجر برعاية حكومية وحصانة من بائعي الشاي الذي يدفعون لرجال شرطة السياحة رسوم هذه الحصانة!

- "مبارك" رحل ورجاله في السجن... لكن الفرحة بينها وبين قلبي مسافة

وصلني منذ قليل خبر القبض على صديقي الفنان الممثل (على)

قالت لي صديقة مشتركة بصوت متحشرج عبر رسالة على صفحة الفيس بوك

- (على) وغيره ألقوا القبض عليهم من الميدان... كان يمشي متجهًا لدار النشر التي كنّا نتجمع بها أيام الثورة الأولى

بينما قال لي رئيس مجلس إدارة الموقع المُعارض الإسلامي الكبير بصوت واثق عبر هاتفه

- لا داعي لأن ننتقد المجلس ولا يجب أن ننقاد وراء دعوات التخريب وأنت طبعًا رئيس تحرير واع....

كانت اتصالاته قليلة... منذ أن بدأت ثورة ٢٥ يناير... في البداية بسبب قطع الاتصالات. ثم بسبب انشغاله في لقاءات نائب الرئيس الذي كان... وقادة المجلس العسكري وبعد ذلك بسبب حفلات استقبال كبار الوفود ...

صورة (علي) وهو معلق من شعره في شجرة... بعد أن قبض عليه العسكر... لا أستطيع أن أمسحها من شاشة وعيي

قالت لي زوجتي الطيبة:

- افعل ما تراه...

بينما قال لي مسئولي في الأسرة الإخوانية

- طالت فترة عدم انعقاد الأسرة... ونريد أن نلتقي لنتزود بزاد التقوى!

حضرت بعد صلاة العشاء اليوم عقد قران بنت أحد قيادات الإخوان...

قال لي وهو يستقبلني

- أين حلتك الكاملة...

- الأزياء الرسمية صارت خانقة... مبروك

- إذن كاجوال ستكون مقدم الحفل!

تجردت تمامًا من الزي الرسمي... حتى (التيشرت) لم أكوه...

علق على ذلك رئيس مجلس إدارة الموقع بأني متعاطف مع جيل الشباب الذين يعقدون مؤتمرات للإفصاح عن رؤاهم وأفكارهم لكنه همس واثقًا

- أعلم جيدًا أنك تدرك أن مصلحة الدعوة تقتضي أن نوحد لغة الخطاب

"علي" يتدلى من الشجرة وكثير من شعره متقطع ولسانه لا يكف عن الشتائم

النيل هادئ جدًا أمام الفندق الصغير بشارع آل سعود... جميل أن يسقط مكان كهذا من حسابات كبار المستثمرين...

قررت أن أسير متجردًا من هندامي الرسمي، وكثيرًا من ذكريات البكور ونفسي...

الحياة متسولة عجوز تسير إلى جواري، تتعلل برداء يهتف: أكرموا عزيز قوم ذل!

أرمقها بنظرة مقيتة...

والنيل آخذ في الاتساع والحميمية.

الأفكار تتداخل خيوط عنكبوتيه ترمي كل شبكتها على أشيائي القائمة التي كانت.. تأسرها. عزيمتي تتعلق بسيجارة محشوة يهرب بها الشاب المار إلى جواري إلى حيث يستطيع أن يُكمل.. تعبت لا أستطيع أن أكمل...

أرمي جسدي عند أول قطعة سور مستعدة...

أبحث دومًا عن حواء التي تسكنني منذ وُلدْت... حواء الحرية... محجبة وسافرة وربما منقبة أو عارية...

أمامها أتعرى في فراشي... وبها أتعرى معلقًا في زاوية غرفة التحقيق بمباحث أمن الدولة... وسيأتي يوم أتعرى بين يدي عدد من أناس لا أعرفهم حين تتحرر روحي وأتمدد على خشبة غسل كئيبة.

"حواء" دومًا كانت تحملني...

لم تتخلَ عني لحظة منذ أن أسلمتني ليديها (الداية) العجوز التي قالوا لي أنها كانت تأكل البلح الزغلول الكبير بأصابع لم تغسلها من دم المخاض الذي أنجبني...

كانت حواء في البداية جدة... أمًا لأب...

ثم أمًا... أتوارى منها في أحضان الأم لأب

ثم حبيبة أبحث عنها ثم زوجة أهرب إليها ومنها

ثم ابنة تتدلل وتكبر وتحترمني ... لأخاف منها ...

حواء سرٌّ للتحول ...

سريعًا أتحول وكثيرًا أتحول من واحد لواحد ثم أعود لأتحول للواحد الذي كنته فلا أجده يتوه وأتوه في محيط التحولات ...

وسريعًا أتحول تجاه النيل محتضنًا ركبتاي وسيجارة ...

حلقات دخان تبحر بي من طفولتي إلى حيث أكون ولا .... ثم ترسم صورة لأمل ما ... لشيء ما ... لوجه ما .

أتذكر حظك اليوم (ربما تفقد الأمل ولكن لن تفقد الحياة)

- يااااااه أي أمل هذا الذي لا أنتظره؟ أن أكون صحفيًّا أم أكون أبًا ، ربما زوج أو مناضل .... ربما هائم على وجهه في بلاد الله لخلق الله ...

(هائم على وجهه) ...

يتجمع حولي فجأة كل الذين التقيتهم هائمون على وجوههم (بسيوني الذي كان بائعًا للخضر - دسوقي الذي كان يخفي تحت جلبابه سينما ذكورية فحلة - رمضان المنغولي الطيب - بسَّهْ الذي يريد أن يفجر الحكومة - نعمة التي تهوى تقبيل الرجال بشفتيها الملطختان دوما ببقايا طبيخ) كلهم يرتدون ذات الجلباب المرتق بأشلاء السنين

أراني أرتديه وأتميز عنهم بالشعر الملتحم لحيةً ورأسًا ، وصوتي يملأ الأجواء .... "واحد بنوحد الواحد ... اتنين الحسن والحسين وتلاتة إرمي التريس الخسيس تصبح ما تخسرش" ويُلح السؤال

- "ما تخسرش إيه" إذا كان لا يوجد أصلاً ما تخسره

تمرق على صفحة النيل بقعة ضوء.... توقظني من رفقة الهائمين على وجوههم وتصدم عيني .. تفاجئني لأهتف

- بسم الله الرحمن الرحيم

كنت قد تخطيت سور الكورنيش وجلست على صخرة بارزة لأكون أنا والنيل وحدنا وأسمع صوت جدتي حُبِّي تطمئنني

- "سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ"

أُهدِّئ رجفاتي بإطالة النظر لأضواء تلك الاحتفالات المنبعثة من بواخر النيل رافضةً الاستسلام لحالة فزع إجباري نتج عن ترك كل رجال الشرطة لأماكن عملهم ...

وأخاطبني

- "أكيد إضاءة متحركة"

وما أن أمسكت بتلابيب توتري وتوجهت بها إلى أسفل قدمي لأدفنها حتى سحبتني يد المفاجأة من قفاي إلى بقعة ضوء تُبعث من مياه النيل تمتد إلى عينيّ ...

تدخلها من باب القرنية إلى أقصى الوعي ...

تنبش في قبورٍ استحال ساكنوها ترابًا من زمن ...

تنفخ في صُورٍ قَدَرِيّ ...

تنفتح القبور ...

يتشكل الرفات حياة كانت ...

وتستدعي كل نبضها وقدرتها على الحياة.

أراني الطفل الواقف إلى جوار أبيه يتلقى تهاني العيد أمام مسجد القرية

أراني الولد الجالس أمام جده لأمه أتلو له مقطعًا من سورة "الرحمن" بصوت خاشع فيقرصني في فخذي قائلاً : (أي شيخ هذا الذي يتلو القرآن في شورت أحمر؟!) ويضحك...

أراني الولد الغارق في غربة بلاد النفط مع والد يبحث عن جنيهات تبني بيت العائلة

أراني الفتى المتميز في مجموعة أشبال الإخوان المسلمين

أراني... المراهق الباحث عن حب بنت جيران لم تولد

أراني... الجامعي المناضل نهارًا... المتصعلك ليلاً... الهارب أحيانًا... والمعتقل أحيانًا أخرى.

أراني... صاحب القلم المكسور السن بفعل فكرة ذابلة ونجوم نضال بياقات بيضاء

أراني... في جلباب مدرسة النفط الخليجية ومريلة المدرسة الأزهرية وقميص المعهد الديني وجلباب المنبر وحلة ورباط عنق المؤتمرات والاجتماعات ومايوه البحر وعاريًا أرقص أمام مرآة حمام بعد كلمة عصماء في تجمع نخبوي!

أراني شحاذًا يطلب الحياة من وجه جميل يمنحها لمن يدفع إلى أن يَمَل فيكشف للشحاذ عن لسان حية مشقوق ليركض مرتاعًا مبتعدًا عنه.

أراني... القادم والذاهب

أراني... المسافر والمودع وربان طائرة لا تهبط في أي مطار

كل شخوصي أراها تنطلق، رافعًا راية الحياة عبر الشوارع المؤدية إلى حيث أجلس في شارع عبد العزيز آل سعود

فجأة ودون أن أودع النيل أدرت وجهي عنه لأكتشف أني أعرف كل وجوهي

راجعت كل الملامح وحفظتها

بدلت كل الملابس والأقلام

وأعدت سماع كل الألحان

وتوحدت....

وسرتُ إلى جانبي "..."

مغادرًا منيل الروضة وشارع عبد العزيز آل سعود والنيل

سرتُ معي نُحَاكي المساء الصافي ذات مساء

ومن يومها وخطواتي تحملني لذات المكان

وصار كل مساء ذات المساء

القاهرة ١٨ مارس ٢٠١١م

فهرس

م	العنوان	الصفحة
-	استهلال	٧
١.	الانتصار للبوسنة	٩
٢.	القطار في غابة الأطياف	١٩
٣.	اعتقال شمس	٢٥
٤.	وصل القطار	٣٣
٥.	قلبي ليس معي	٣٩
٦.	الخنجر في ظهر عمر..	٤٥
٧.	"الفايش"...	٥٣
٨.	أصبحت جدًا فجأة...	٦١
٩.	صخرة على جسد مفتول العضلات	٦٥
١٠.	الرجفة	٧٣
١١.	لقاء على باب الرحيل	٨١
١٢.	خالي من الشوائب	٩٣
١٣.	كعكة بالكريمة في مساء "حيفا"	١١٥
١٤.	دخان الغجري	١٢٥
١٥.	عدسة الخرساء	١٢٥
١٦.	ذات مساء	١٣٥

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس
للنشر والإنتاج الإعلامي

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر